رسالة

رواية مهجرية قصيرة

رسالة

رواية مهجرية قصيرة

قصي الشيخ عسكر

رسالة .. رواية مهجرية قصيرة

د. قصي الشيخ عسكر

الطبعة الاولى: 2016م

اصدار: مؤسسة المثقف، سيدني – استراليا

نشر وتوزيع: دار العارف، بيروت - لبنان

بين يدي السرد .. قراءة الرسالة

سيرة النفي الاختياري بحثا عن الحب والحرية والسلام

بواكير الدلالات الفنية للسرد الماثل بين يدي المتلقي تتدافع متسابقة لنيل الصدارة بين:

العنوان الأصليّ "رسالة" بما فيه من دلالات معنوية على رأسها التنكير، بمعناه البلاغيّ، والاكتفاء بالاسم دون لواحق أو توابع من أوصاف، أو حروف.

ودلالات في البناء اللفظي من توسط المدّ بالألف، ومن الانتهاء بالتنوين.

أما لغة الرسالة فهي الروسية، والحق إنها رسائل، يمكن أن تصهرها رسالة واحدة لتكون رسالة السارد – أو الرسائل – بمثابة رؤية البطل للعالم، برغم وصولها متأخرة خمسين عاما وبضعة أشهر، رؤية العالم من خلال عنترة البصريّ الذي يذكرنا بعنترة العبسيّ، مع فارق الزمان والمكان، وليكون الارتحال والاغتراب والمنفى الاختياري، وقد حدث بالنسبة للفارسين – بمثابة رحلة الإنسان المعاصر، بحثا عن الحب الضائع، والحريّة المسلوبة، والكرامة المفقودة، والوطن المسروق، والسلام الذبيح، في وقت خاف فيه الغريب من الحارس العملاق عند باب المرقص، وحيث يثير ظهور الغرباء في المدينة

الصغيرة الوادعة انتباه مواطنيها، وحيث يأوي السارد – تحت اللحاف – إلى المذياع ليستمع إلى أغاني الحرب من محطة بغداد، تماما كما كان يحن عنترة إلى مضارب عبس وديارها، فارس هناك بسيفه وفرسه الذي يحمحم، وفارس هنا بقلمه يمتطيه في رحلة البطل المعاصر الباحث عن الحرية والسلام.

ولهذا فإننا نلتقي بأركان الرسالة، وعلى رأسها الاستهلال، أو الافتتاح:

" عزيزي السيد باول نيكلسون .. تحية إلى روحك .. "

والشخصيات: السارد، ونيكلسون، وليزبث، وأبيها متلقي الرسالة، وموسولوف مرسل الرسالة، وغيرهما من شخصيات، في سرد بضمير المتكلم، حيث تتحقق الحميمية، والمصارحة، ويتدفق الاعتراف في السرد الذاتي.

هذا عن العنوان الأصليّ، امّا العنوان الفرعيّ، وهوعادة بمثابة التفسير والبيان للعنوان الأصلي، فكان "رواية مهجرية" لتلتصق دلالات العنوان الفرعيّ، مدعومة بدلالات العنوان الأصليّ، بالدلالات العامة لمآسي الحروب وويلاتها وكوارثها ومصائبها، سواء أكانت حرب العراق مع إيران وهي إن كانت – شكلا – محلّيّة، فهي في الأساس، وفي البدء، والختام، أيضا عالميّة، أو صناعة عالميّة، شأنها شأن الحرب العالميّة الثانية، موضوع السرد، وما قبلها من حرب أولى وما صاحبهما وتلاهما، وسيتلوهما من حروب في شتى بقاع الأرض، تُصطَنع اصطناعا، وترتب ترتيبا، ومن هنا كانت

دلالــة العنــوان " روايــة مهجريّــة"لا لبيــان أن يعْلــم مؤرخــو الأدب ونقــاده، خطــوات انتشــار الأدب المهجــري الجديــد، كمــا أسـميته فــي موسـوعتي للشـعر العربـي، فـي طبعتهـا الأولـى، أو (قـاموس الشـعر والشــعراء) فــي طبعتــه الثانيــة، بــل لــنعْلم أن الســارد - وهــو مــن روادالأدب المهجري الجديد، يجيد ثلاث لغات: العربية، والإنجليزيـة، والدانماركية- في هذا النوع الجديد من سرد السيرة الذاتية، الذي يقدم لنــا بطــل الســرد ضــحية مــن ضــحايا تلــك الحــروب، المقترنــة بالدكتاتوريّة، وبطش الطغاة، هاربا من الحرب، في جوٍّ قتـال عـالميّ: قتال في لبنان، حرب إيران العراق، الدم يبـاع فـي لبنـان، والكـلا فـي الهنـد، والـذئاب تـرقص، والبشـر يتقـاتلون، أسـرى، هنـود حمـر هنـود بـيض – مـلاك ذو مخالـب- موسـكو تسـقط 1990 والـذئاب تـرقص 1991، لاجئــا إلــى أحضــان " الهجــرة"، أو المنفــى الاختيــاريّ، متعرضا لسطوة البوليس السرِّيِّ فـي روسيا، ومطاردتـه، إذا مـا مـات جواز سفره، ويسـاومه مغربـيٌّ ليبيـع لـه جـوازا صـالحا باسم آخـر، أو ليزوِّر جواز سفره، حين اشترى جواز سفر من برلين، بعد أن عـاش فـي روسـيا خمـس سـنوات، فعاملتـه مثلمـا عاملتـه بغـداد، التـي أراد طغاتها منه أن يعود إلـى بغداد جنديّا يقاتـل الجنـود الإيرانيين، أو يقـع أسـيرا، أو يكـون هاربـا أعيـد إلـى وطنـه وقـد ألقـي القـبض عليـه فـي المطار، ولينطلق المونولوج الداخليّ من باطنه. " من قـال إنّ موسكو تختلف عن بغداد؟" متذكِّرا ما علَّمـه إيَّاه مـدرِّس الجغرافيـا مـن وقـوع بغداد وموسكو على خط العرض نفسه، متفقتين مناخا، وتوقيتـا، حيـث

كانت في:معالم العزلة، والسجن الكبير، والستار الحديديّ، مع أنها تمثِّل مساحة سدس العالم، وها هو يهرب منها منصرفا عن دراسة الطبّ، وليتمثَّل مقولة الشرقيين التي تتمثَّل تصور أهل الشَّمال أن سواد الشعر، بفتح الشين، هو سواد الشيطان.

ومع ما تقدم احتلّتْ عتبتان اختار لهما صفة (تهويمتان)، بما للتهويمة من معان.

التهويمة الأولى من الأساطير العربية:نابعة من مثل عربي، هو سرد موجز مكثف في الوقت نفسه، يلخص دلالات السرد الذي بين أيدينا، اضطر عربي عانى الضيم من أهله، ففر منهم إلى من أبدله بالضيم عزا، وبالذل إكراما، وهي الدلالات نفسها، التي ينطق بها السرد الذي بين أيدينا.

التهويمة الثانية من ترنيمة سومرية، فيها من الأسطورة والميثولوجيّ، وبناء " السكن" الإنسانيّ، الأسرة، الزوجة الدافئة، والأبناء، والمنزل السعيد، أي الأركان المفقودة في عالم السرد هنا، الخالي من أبناء الوطن، والأهل، وجماليات المكان في البصرة وبغداد، بعد أن ضاع حلمه أن يصبح طبيبا، وحرم من ممارسة مهنة الطب في بلدته البصرة، الميناء الوحيد في العراق (وللميناء دلالته)، والتي ولد فيها (قرية نهر جاسم) سنة 1951، وغادرها أهله في السنة الثالثة للحرب، وهو لا يعرف من أمرهم شيئا، فخسر الزواج، ومن ثم كان الحرمان من الاقتران بالقرينة، منذ غادر العراق سنة 1979، لاجئا في الدانيمارك،، أو موسكو، فقد اشتعلت الحرب في العراق فلم

يجرؤ على زيارتها، ولا على استعمال الهاتف المتصل بها، وكيف وقف المارشال " كريشكو" المنتصر في الحرب العالمية الثانية، والذي دوّخ الألمان في الحرب، يقابل السيد النائب الذي انتهى توّا أو قبل سنوات من محاولة اغتيال الزعيم المحبوب في شارع الرشيد المشهور في بغداد، ومعروف ذلك النائب الذي صار رئيسا، والذي كان وراء تلك الأحداث والمآسي المتتابعة، ومنها مصير السارد، الذي يمسح الآن، الصورة القديمة من ذاكرته تماما، ويقْطع صلته بالماضي مقررا:

" لست مجنونا حتى ألقي بنفسي في أتون حرب لا يعْلم إلا الله نهايتها".

كان موقع العتبتين في مكانهما المتبع في كل إبداع، أي في الصدارة، والجديد في السرد هنا، أن تعود العتبتان إلى المتن الحكائيّ، أو يبعثهما السرد من جديد في متنه، فيعود للتهويمة الأولى ليكمل خيبة أمل الأعرابيّ، حيث المفارقة، المتمثلة في أن ينقله مصيره من الاطمئنان إلى الخلاص من ذلّ القبيلة، والظنّ بالنجاة من بطشها، إلى إصابته بالأسى، فبعد أن نصب خيامه وسط مضارب قبيلة أخرى، وجدهم " يؤذونه كما فعل أهله من قبل".

كما يعود السرد في متنه الحكائيّ، مرة أخرى، للتهويمة الثانية في " فلاش باك" إلى الصدارة، حيث أحبّ الشاعر إحدى قريباته، وتقدم لخطبتها، فطلب منه أبوها الارتحال من أجْل تقديم مهْر لها، فارتحل واغترب، أما هُم فزوّجوها من غيره، أما هو فحين عاد أوهموه أنها

ماتت، ودلّوه على قبرها، ليبكي ضياع أمله في الحياة الزوجيّة، وهو، وإن تمثّل، بحكاية عنترة بن شداد، وقصته مع والده، ومع حبيبته عبلة، ومع قومها، ومهرها من النوق الحمراء ذوات الأجنحة، فما ذلك كله إلا الصراع الإنسانيّ من أجل الحريّة والكرامة، وهو، نفسه، مانراه مع المهاجرين المغتربين من أنحاء الوطن العربيّ كله، وما نراه من آثار الحروب المصطنعة، التي طبخت طبخا جيدا قبْل وضعها على الموائد، وأعدّتْ سيناريوهاتها قبْل الإخراج والتصوير الجيدين، ليضاف ضحاياها المشردون، إلى ضحايا الهجرة من أجل الدراسة أو العمل أو أكل العيش، سواء أكانت هجرة شرعية أم غير شرعية.

ثم يجذب المتن الحكائيّ العتبتين والتهويمتين مرة ثالثة عن رحلة الأعرابي الثالثة، وعن العاشق الذي ظل يبكي قرْب قبر حبيبته حتى فارق الحياة، ثم مرة رابعة وأخيرة، ظل فيها البدويّ كلما وجد قوما اكتشف فيهم قوة وبطشا تفوق ما وجده لدى سابقيهم، أما العاشق في التهويمة الثانية، في مرحلتها الرابعة، فقد وضع كفيه وذراعيه حول كتف عروسه المحبوبة، التي كانت نهارا بالنسبة له، تعتلي العرش ليعوضه الله بأناس طيبين، موقنا أنها في حضن رجل آخر.

وهكذا أضاف تكرار ذكر العتبات، صفة بطولة " سيزيف" أمام التحديات المتكررة.

ومع توظيف العتبات، وقيامها بالدور المثْري للسرد، كان توظيف الأجناس الأدبية الأخرى من شعر غنائيّ، ومن غناء، حيث كانت

الأغنية الروسية التي كانت شهيرة زمن الاتحاد السوفيتي، غناها بحماسة كالآخرين، غير مبال بالثلج والصقيع:

لتبْق الشمس مشرقة دوما

لتبْق السماء صافية إلى الأبدْ

لتبْق أمّي دائما

لأبْق أنا

ومنه: ذلك النص من الشعر الغنائيّ الطويل المنسوب إلى القرن التاسع عشر، وبالتحديد سنة 1864، رصدا مآسي الحرب وفيه:

الحدائق تمّ فرْزها مؤخرا – كانت هناك عاصفة وبستان تعرّض للجليد- .. نير على الرقبة، وقفْل في الفم ..

وتوظيف جماليات اللغة، حيث لا يكون البيان تزويقا، أو زخرفة شكلية، بل يكون ضاربا في أعماق الدلالة، فيفوق التصوير آفاقه التخييلية، ومراميه الإبداعية، متجاوزا ذلك إلى توسيع الدلالة، مثلما نرى في تصوير" تناول الفاكهة الباردة في موسم مثلْج، أو المشروب الساخن في عزّ الحرّ "، تصويرا للتنافر والتضاد، ومن ثم الاغتراب والوحشة، وضياع الألْفة، لتتضافر اللغة: شعرا، ونثرا، في السرد، في التراسل مع الأجناس الأدبية وتمازجها وتوظيفها- تتضافر مع آليات السرد، وأركانه في تصوير محنة الإنسان المعاصر مع الاغتراب، ومعاناة القهر والبطش والظلم والقمع والدكتاتورية، وضياع الحب والسلام والحرية والكرامة والإنسانية، فيما يبوح به

الروائي الشاعر الناقد أحد رواد المهجر الجديد " قصي الشيخ عسكر " فيما بين أيدي المتلقي من سرد فني راق.

د. يوسف نوفل

تهويمة أولى

"كـان هنـاك أعرابـي عـاش وسـط قومـه ردحـا مـن الـزمن فـذاق مـنهم الأمرين من عذاب ومعانـاة وسـوء معاملـة فـي النهايـة قرّر أن يرتـحل عنهم ويسكن مع قوم آخرين لايؤذونه"

من قصص أمثال العرب قبل الإسلام

تهويمة ثانية

"عسى أن تمنحك الإلهة زوجة دافئة

عسى أن تمنحك أولادا

وأن تجد لك منزلا سعيدا"

من ترنيمة سومرية

- 1 -

عزيزي السيد باول نيكلسون

تحيةً إلى روحك الطيبة.

بهذه العبارة بدأت الرسالة التي بدت غريبة إلى حدّ ما لمن أُرْسِلَتْ إليه أساساً أو لي أنا الذي لم تكن اللغة التي كتُبَتْ بها غريبة عنِّي .. تلك الحروف التي رأيت صورها على بعض البواخر في نهر شط العرب وأنا طفل صغير ودرَسْتُها فيما بعد بلْ تجلّت غرابتها بدفء الزمن الطويل الذي ضمَّته بين سطورها وانفتحت عنه حالما وجدتْ منفذا تتسربُ منه ..

أكلُّ ذلك يجري في عالم المحال الذي لايشبه أيّا من العوالم التي نعرفها؟

حممٌ في باطن الأرض وجدت ثقباً تناثرت عبره إلى أكثر من مكان ..

هواءٌ تجمَّع في بالونٍ .. وانسَلَّ دفعة واحدة ..

أو مثل أرض احتضنت حبةً زمناً فلم تنبت تحت ظلال سدّت عليها منافذ السماء حتى إذا تنفّست شذرات من نور تسلل إليها بين بعض الأوراق الكثّة والغصون تفتحت تشرئب بقامتها إلى البعيد .. فما هي إلا ورقة اختصرت سنوات طويلة ثم وقعت بين يديّ ولعلها جنيّ تململ حبيسا في قارورةٍ كلَّ تلك العقود .. كانت عيناي تحومان مثل

طائر وديع على المنضدة تنتقلان بين كتاب "الفطر " الذي استعرته من السيد " باول"المعَنْيِّ بتلك الرسالة وسطورها الغريبة وصورة شيخٍ كبيرٍ نحيفٍ أصلعَ طويلِ الوجه أنهكته السنين عدا بعض إشراق ووداعة في عينيه .. راحت السيدة " ليزبث" تتمعن في الصورة تارة والكتابة تارة أخرى وربما زادت دهشتي كونها – الرسالة - تأخرت مرتين: مرة نصف قرن بعد نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرةً ومرةً أخرى حين وصلت متأخرة شهرين كما يبين ذلك من ختم البريد.

- لاأظن أن لأبي معارف في روسيا!

قالت عبارتها ثم تمعَّنت في صورة الشيخ وأضافت:

- لم أسمع من قبل أنه يعرف أحداً هناك بلْ لم ْيفكر بزيارة موسكو قط لقد شككت في الطابع وحين فتحت الرسالة وقعت عيناي على الحروف الغريبة التي خمَّنتُ بالفطرة أنهَّا روسية!

اكتفيت بهزّة من رأسي، وقلت:

- هي من روسيا بالفعل وقد كُتِبَتْ قبلَ شهرين كما يتضح من تدوين المرسِل، يؤكِّد ذلك ختم البريد الصادر، و لو وصلت قبل بضعة أيام لكان من المحتمل أن تؤدي إلى إيقاع آخر؟

- من يدري ربما!

- قد تكون أشبه بعلاج يستبق المرض!

- لكن هل يُعْقَل أن تصل الرسالة متأخرة شهرين على تأريخها؟

أيُّ هدوء يعرقل حرفا ما نصف قرن وأية فوضى تلك تؤخر رسالة شهرين بل سنوات، ذلك يحدث لأنَّ روسيا تجلَّت مثل مارد ضخم سَكِرَ كثيرا ففقد صوابه وراح يلفظ ما في أحشائه فاضطجع أمام المارة على أحد الأرصفة أو في مترو الأنفاق يراه العابرون ولا يلتفتون إليه، والدنمارك ذلك البلد الصغير الأليف الذي ينتحر بعض أهله من البطر والرفاه حَمَلْنا إليه مرّةً نحن اللاجئين أشياء غريبة لم يألفْها من قبل ومرةً أخرى جاءته روسيا بما وراء جدارها الحديدي على شكل رسالة تملمات أربعين عاما كُتِبت مرة ولم وتصل وثانية كُتبت واختفت، وثالثة ضاعت وها هي – إذ اندلعت الفوضى وتدافع الناس هائجين- تُكتَب من جديد فتصل في وقت كاد يضيع في دوّامة اليأس بل كيف ينسى بعض سجناء الإسطبل شخصا أحسن إليهم في زمن لايرحم:

- البلد لما يزل في فوضى حقيقية كما يحدث في أيِّة ثورة!

- عجيب .. عجيب حقا !

- أتوقّع أن الأمر يتطلب سنوات ليستعيد بلد شاسع مثل روسيا عافيته.

كمن يستسلم لحقيقة مرّة:

- أمر فظيع في غاية السوء.

- يبدو الأمر مقبولا حين نتذكر أن هناك رسائل وصلت إلى مُرْسَليها بعد سنةٍ أوْ عشرٍ من إيداعها في صندوق البريد!

قلت ذلك في محاولة مني لأُسايرَ دهشة السيدة " ليزبث " التي راحت تحدِّق في المظروف المعنون إلى أبيها عبر عنوانه القديم في إسطبل الخيل كأية طفلة ترى مصادفة مشهدا غريبا يشدّها إليه. حروف بعضها أشبه بالرسم .. شكل يثير الدهشة في وقت غير مألوف. ربما يستغرب غيري من الرسالة أمّا وقد عاشرت الروس وخبرتهم فالأمر كما أتصور طبيعي على ندرته .. هواجس وأحاسيس تفيض، ومشاعر أجدها أكثر قربا لنا نحن الشرقيين .. قلت إن الرسالة لاتثير استغرابي بل دهشتي وإن بدت كل الظروف غريبة في هذ الوقت كفاكهة باردة في موسم مُثْلِج أو مشروب ساخن في عزِّ الحرّ .. انقلاب موازين العالم .. الأحداث المتسارعة المذهلة .. الماضي الذي يطلّ علينا بين فترة وأخرى .. الحنين إلى الزمن القديم حُلوِه ومرِّه .. والحقائق التي انبعثت فجأة من الخيال ثم وجودي أنا في هذه القرية الهادئة التي لم يطأها أيّ عابرٍ من ذوي الرؤوس السود من قبل إذ كان الشرقيون يتصورون وأنا من بعضهم أن أهل الشمال يرون السواد لون شعر الشيطان!

لقد أثرتَ حقا فرحي وشجنا خفيفا معفَّرا بعطر الماضي ومآسيه أيها السيد العزيز "موسولوف"على الرغم من أنك لاتعرفني ولا أظنك تعرفني في يوم ما مع أني عشت في بلدك خمس سنوات ورأيت كل يوم وجوها كثيرة مثل وجهك السمح البريء. ياسيدي كنتَ مثل أيِّ

روسيٍّ حريصاً على ما بين يديك وأظنك مثلما تعتز ببدلتك الوحيدة وحذائك ومعطفك .. تلك أدواتك التي تعيش معها عمرا طويلا أو الورود التي لايخلو منها بيتك رحت تعتز بقصاصةٍ من علبة السجائر التي طلبت من السيد باول أن يكتب عليها عنوانه فحاولت مرات حتى تحقق لك ماأردت.

كنت أسأل نفسي وأنا أقلّب رسالتك هل حقا تغيرت موسكو وانفتح باب السجن الكبير على مصراعيه؟أين هو الستار الحديدي؟لمْ يُنغلق سدس العالم على نفسه ليموت من العزلة بل انغلقت موسكو عليّ وحدي فبالأمس القريب قتلت تلك المدينة طموحي بعد أن منحتني الأمان .. ظلّت تطاردني مثلما هي بغداد التي أرادتني أن أعود إليها بأيٍّ ثمن كان.جنديا مقاتلا على الجبهة الإيرانية .. أسيرا .. هاربا مُلقىً عليه القبض في المطار .. من قال إن موسكو تختلف عن بغداد ..؟ على خط الطول نفسه .. بعينيّ رأيتها على الخارطة وكانت عصا المدرس تمدُّ خطّاً من الشمال إلى الجنوب .. التوقيت ذاته، في بغداد حرب وهناك فوضى .. لقد عادت بغداد إلى أيام عنترة بن شداد والمقداد وسعد بن أبي وقاص أما موسكو فقد بعثت إليّ برسالة تأخرت خمسين عاما وبضعة أشهر .. لايهمّ .. هاهي ترسلها إلى شخص آخرَ أحتَلُ مكانه فهل اتفقت موسكو مصادفة مع بغداد على التوقيت ذاته؟ الساعة الثامنة مساء .. هنا إذاعة موسكو .. الثامنة مساء من بغداد .. نشرة الأخبار .. لاتقلقوا أستطيع أن أتصل بكم هاتفيا فحساب الزمن في موسكو هو نفسه حساب بغداد والبصرة ..

كان معلم الجغرافية في المتوسطة يقول كلتاهما تمتدّ على خط طول واحد .. يا أولاد تذكروا العبرة ليس هو خط الطول فلا فأل حسن حيث يجمح غزال نحو اليمين ولا فأل سيءً يلوح حين يطير غراب نحو اليسار بل هو خط العرض الذي يجعل زمن المدن يختلف ويدفع بأهل الخرافة إلى الظن بالحيوانات والطيور المهاجرة نحو اليمين والشمال، ويضيف مدرس الجغرافيا إفهموا ياطلاب أن موسكو تصالحت مع بغداد في الوقت نفسه اختلفت مع بعضها ففرق التوقيت بين أقصى نقطة تقع شرق الاتحاد السوفيتي وأقصى نقطة غربه يكاد يكون نهارا كاملا!مع ذلك ابتسمتُ قائلا في سري سواء تَغيَّرتْ موسكو وانفتحتْ على العالم أم بقيتْ على حالها فقد ضاعتْ هدرا جهود التاجر المزارع الثري رجل عمتي أو كما أخاطبه وفق العرف الشائع بكلمة عمّي .. وخاب أمله وحُلُمُ عمّتي القديم في أن أعود إلى البلد طبيبا فأتزوج من ابنتهما ..والأهمُّ من كل ذلك خسرتُ دراستي ..

إنهّم الآن لايعرفون عني أيَّ خبر .. مثلما أجهل عنهم أي شيء ..

لكن هل يتوقعون أني تركت دراسة الطب هاربا من موسكو؟

وحورية التي كانت طفلة صغيرة تلعب معي خلال زيارتها مع أمها إلى بيتنا فتزحف تحت سرير جدتنا فتقلِّدني في المواء والنباح هل عرفت أنّ بيني والعودة جبالاً من المحال؟ .. ماذا تنتظر ياترى؟ دكتور .. دكتور .. زوجة الطبيب ذي العيادة المعروفة في العشار ..قرب ساعة سورين .. كان أبي يفضِّل أن تكون عيادة المستقبل قرب

ساعة سورين في مدخل سوق الهنود فإن لم نجد حيث يرجو فلابأسَ في نهاية سوق الهنود عند الفسحة المطلة على سوق القشلة ..

كيف استقبلتْ أمر غيابي المفاجيء؟

لم تكن ذات جمال خارق ولعلي قرأت في عينيها بعض الرغبة التي تربّت عليها منذ الصغر يوم فهمتْ بالتصريح تارةً واللمزِ أخرى أن قدرها وفق الاعراف سيكون معي. لاأفكر بعروس .. عروسي حاضرة غير بعيدة عنِّي . لقد عرفتُ حين أصبحت في المرحلة الثانوية أن رجل عمّتي الذي هو من أبناء عمومة أبي لايفضل الدماء الغريبة وكان لأبي الميول نفسها فحينما أنهى أخي الأكبر ياسين المرحلة الثانوية اشتغل في مؤسسة الموانيء ثم تزوج وفق اقتراح أبي من إحدى بنات عمومتنا وغادر بيتنا إلى المعقل حيث سكن في أحد بيوتات المؤسسة.وكانت أمي تقول إن عمتي التي تملأ جيبي بالفستق والمكسِّرات في أثناء زياراتي لبيتها مع أبي هي التي زرعت- برأس زوجها - فكرة زواجي من ابنتها لأن والدي أخوها الوحيد لكني تجاهلت الأمر تماما منذ دخلت في مرحلة المراهقة .. فلمْ أحاولْ أن أتعّمد النظر إلى حورية نظرات ذات دلالة ما .. أعرضتُ عن أن أكشف لها عن أية مشاعر .. مثلما انقطعتُ بالضبط عن إزعاج جدتي حين أنهيتُ مرحلة الدراسة الإبتدائية ..واقتصرت مشاكساتي على أخي المسالم الهاديء الطبع ياسين الذي يكبرني بأربع سنوات .. الآن مع هربي من موسكو .. وقصة خطوط الطول والعرض أو بحيرة البجع التي رأيتها فيما بعد تغيّر كلّ شيء .. هناك

معادلة واحدة اقتنعت بها منذ سنين فانقلبت تماما .. ظننت سابقاً أنّي أتغير أنا وغيري وكلّ أحدٍ أما موسكو فتبقى كما هي عليه .. كل العالم يمكن أن يتغير وتبقى موسكو بمساحتها الشاسعة وطرقها ومترو أنفاقها المذهل وساحتها الحمراء ونظامها السياسي .. قوةً عظمى تستطيع أن تدمر العالم، تمحو أوروبا .. تهلك ثلاثة أرباع أمريكا .. موسكو جعلت الشيوعية تحكم ثلث العالم .. فأيّ انقلاب يحدث فيها .. وأيّة يدٍ تمتدّ إليها وهي رابضة فوق النجوم محال .. محال .. ومادامت قد تغيّرت على النقيض مما اقتنعت به سلفاً فعلى الله العوض في حسابات عمتي وزوجها .. خمس سنوات قضيتها هناك في دراسة الطب ثم تبخَّرتْ كلّ جهودي .. اشتعلت الحرب فلم أجرؤ على زيارة العراق .. ولا الاتصال عبر الهاتف .. كنت سعيدا بصديقي خط الطول .. التوقيت نفسه .. الساعة الثامنة الآن .. حرّ .. الدنيا حرّ .. العطلة بدأت لكنّ تموز لايطاق في البصرة سوف آتي خلال العطلة الشتوية .. .. كيف حالكم .. الساعة العاشرة .. التوقيت الشتوي .. عندنا ثلج وضباب .. صقيع .. الحرارة سبع تحت الصفر كم عندكم .. ثمانية عشر رائع هذا هو صيف موسكو .. كيف حال عمتي .. في السنة الخامسة ماطلت .. جواز سفري على وشك النفاد وأنا أتعلّل للروس بحجج شتى .. شهور ويصبح أوراقا ليست بذات قيمة. جريدة من جرائد الأمس تحمل صورتي .. شيء مضحك. سمكة أو فاكهة متعفنة تفضح ريحُها النشازُ صاحبَها. جواز سفري يعلن عن موته بعد بضعة أشهر والرفاق يطلبون مني وثيقة رسمية ..

الرفـاق الـذين دخلـوا معـي الكاتـدرائيات وشـاهدوا عـروض الباليـة ودخلوا معي قاعات المحاضرات والمختبر ومشرحة الموتى وأظنهم رأووا معي إحدى البجعات الناشزة اللون قرب البحيرة الجامدة تقف فوق الثلج على ساقيها هؤلاء الرفاق يقولون أخرج .. من هذا البلد .. لو انتهى جواز سفرك لما تردد البوليس في أن يلتقطك من قاعة الدرس فيقلّك في سيارة مخفورا إلى المطار .. أهربُ إذاً .. عظمة روسيا تضيع في جواز سفر .. العلم .. الفن .. الموسيقى .. الإبداع .. بحيرة البجع .. الرقص على الجليد .. الغناء .. الشعر الجميل .. بوشكين .. تولستوي .. كاكارين .. الكاتدرائيات الفخمة .. المتاحف .. المسارح .. كل ذلك يمكن أن يضيع ويمُحَى .. في لحظات يتلاشى يزول .. يصبح مسخا إذا قابلك في غرفة مغلقة رجل من الشرطة السرية بوجهٍ كالحٍ وقسماتٍ باردةٍ جامدةٍ صارمة تؤكد أنه مصمم على أن يبعثك إلى الجحيم بأيّ ثمن كان، وعند أية هفوة .. كلّ جمال روسيا ينقلب إلى سحر قبيح فقد أصبحت فرائصك ترتعد أيتها البجعات الجميلات لم يكن سوى البياض يليق بريشكنَّ .. وهو الثلج ذاته .. ولم أكن لأرى بعدُ أيّ لون آخر إلا في تلك اللحظة التي كادت تستعصي قبل هربي وتتلاشى إلى حينٍ وذلك أنّي عندما دخلت مبنى الأوبرا واتخذت مكاني جنب " ناتاشا" .. أستمع إلى الموسيقى ساعات .. وأروح التفت نحوها مرات فأجدها مشدودة إلى العازفين، ضائعة بين النغمات .. عيناها ساهمتان في لوحة الراقصات .. أصبحت واحدة منهن. نغمة تهبط وتصعد .. كل شيء بدا صامتا ..

الحيطان والأعمدة وتماثيل الزينة نحن الإثنين والجمهور أيضا. العالم كلّه تحول إلى نغم .. إيقاع ولا شيء غير الأنغام.وأقسم وقتها أني لم أر أية بجعة بلون آخر .. تلك الليلة حيث غاب عني الإحساس بالبرد وجدتني أتسرب، وأنا في غرفتي بالقسم الداخلي مع ناتاشا إلى صمت انسل حولي من قاعة العرض .. كانت تطوّق عنقي بذراعيها وتقول: هل أعجبك العرض؟ سؤال بريء مثل تساؤل صديقي الحاضر الغائب موسولوف الذي رفض الجنة وعاد من الأسر إلى الحبس .. ولم أعِ قط أن هذا الصمت المتجسد بالنغم والإيقاع الذي كنت أخشى - شأني شأن الآخرين الحضور في القاعة - من أن تخدشه أنفاسي سوف ينتهي في يوم ما إلى صورة مروّعة .. إنه تشايكوفسكي، أكدت وبسطت يديها إلى أمام وثنت قدمها، فوددت لو أنّ الدنيا تظل بهذه الصورة حتى استفقت من نعومة الصمت ودنيا ايقاع جميل لم أفهمه لكنه تسلَّل فيّ فنسيت وتناسيت به مشاكل الشرق والحرب فوجدتني فجأة أستفيق فأتعثّر بعالم آخر مقرف، فتساءلت كيف اختفت المشاهد الجميلة التي احتضنتها بروحي قبل أن أراها وأسمعها، فأعيش قلقا من جديد بعد أن شعرت بالأمان بضع سنين؟

أنا الآن على وشك أن أُطرد إلى العراق!!!

هل يُدفع بي من قاعة البالية والبحيرة الجامدة إلى حيث ألقى مصيري المحتوم ..

كنت أعجب من هذا البلد العظيم الجميل الذي سحر الدنيا بموسيقاه وجال في الفضاء وداس على النجوم أجده يرضخ لإرادة دولٍ صغيرةٍ

تملي عليه كلمتها فيرحِّل طلابا أظنهم ماتوا أو أسِروا في الحرب .. ليكن .. مصالح .. علاقات دول حكومات تتعامل مع أعراف .. ليست هناك من فوضى .. العالم تحكمه قوانين ينفذها الصغير والكبير .. المارشال كريشكو العائد منتصراً من الحرب العالمية الثانية ألغى حضوره لدار الأوبرا وأعرض عن أن يتابع مسلسلا يحكي عن حياة كاكارين .. كان يقف على وقع الموسيقى يؤدي التحية لرئيس دولة مغمورة قدم من إفريقيا أو آسيا .. وهذا المساء ظهر على شاشة التلفاز كريشكو نفسه الذي دوّخ الألمان يستعدّ للسيد النائب الذي انتهى توّا أو قبل سنوات خلتْ من محاولة اغتيال الزعيم المحبوب في شارع الرشيد .. والعزيز موسولوف صاحب الرسالة العائد من الأسر يجد نفسه مع حشودٍ يلوح على وجوه أصحابها الضَجَرُ أُجبِرَتْ أن تقف على جانبي الطريق .. الجميع يلوّحون معه بأعلام الاتحاد السوفيتي وعلم دولة صغيرة في آسيا أو أفريقيا .. أيّة دولة لايهمّ إن عرف موسولوف اليوم فسيراوده النسيان غدا .. إنه رئيس صديق .. ليس بالضرورة أن نتذكّر اسمه .. سوف يمر من هنا ثم ننساه كما نسينا أحداثا صغيرة كثيرة.أيٌّ منّا يخطر بباله بيض اشتراه من المجمّع المركزيّ قبل شهر وماذا تعشى الأحد الماضي كيف إذاً لم ينس صديقي الجديد القديم " موسولوف" وهو ينتظر مع الآخرين عند الطريق اسم "باول" .. نصف قرن مرّ وذاكرته تحتفظ باسم شخص قَدَّم له في الأسر سيجارةً أو قطعة خبز. ابتسم بوجهه على الرغم من عبوس وجه الحارس النازي فمنحته تلك الابتسامة بعضا

من معاني الأمل والحياة. بالتأكيد سوف ينسى اسم الرئيس الزائر ولعلّه لم يسمع به قط وماعليه إلا أن يغني بحماس كما الآخرين غير مبالٍ بالثلج والصقيع:

لتبق الشمس مشرقة دوما

لتبق السماء صافية إلى الأبد

لتبق أمي دائما

لأبق أنا

أما أنا فأبحث في هذه اللحظة عن شخص لاأعرفه اسمه موسولوف لم أر وجهه إلا قبل بضع دقائق لعلني أجده في هذا الحشد الهائل المتراص من المطار إلى الساحة الحمراء .. لو تأخّر هربي لواجهت المصير ذاته .. احتمالان لاغير إمّا الذهاب حيث الحرب المشتعلة وإمّا الهرب .. الحب .. المستقبل .. السنوات الخمس تضيع .. جهد الدراسة .. إلى الجحيم .. لو تحقق الحلم لتوزعت حياتي على حقب متساوية: دخلت المدرسة الابتدائية بعمر ست سنوات وختمتها بست وأنهيت الثانوية ذات الستة أعوام ..مساحة الاتحاد السوفيتي تعادل سدس حجم الأرض وكان عليّ أن أنهي كليّة الطب بستٍ من يدري لو استمرّ الروتين كما هو عليه ماذا يمكن أن يسفر عنه المستقبل؟شهادة طبيب أنهى دراسته في الخارج ليست بقليلة في البصرة .. كل شيء إلى الجحيم فأنا مازلت أراقب بدقة موت جواز سفري .. وأجهل أن الداء نفسه يدب أيضا في البلد الذي تناثر وانشطر وكان جواز سفري

يموت بطيئا بين يديّ فأخفيه عن الأعين مثلما يخفي مهرِّب ماهر حزمة مخدرات .. توسلاتي ذهبت هدرا .. كأن ضابط الشرطة الروسيّ الغليظ الملامح يأخذ ثأره في هذه اللحظة من جدّتي التي كانت تسبني .. مسقوفي .. مثقوفي .. يعرفها جيدا ويتذكر أنها لا تقرّ صعود الروس إلى القمر .. أبي وأمي لايناقشانها وأخي ياسين يبتسم حين يسمعها تدّعي أنه لا الروس ولا أية قوة ولا عشرة من أمثالهم يصلون إلى القمر فالريح سوف تمزق مركباتهم، أنا الوحيد المسقوفي برأي جدتي لكوني أموء ... أنبح مثل الجرو تحت سريرها، مع ذلك لايقتنع الضابط الروسي ولا يعدّني مسقوفيا .. كان كلّ شيءٍ يسير بعكس الاتجاه .. علي أن أقنع نفسي .. لاشهادةَ .. لاعودةَ إلى بلدي .. لازوجةَ هناكَ .. لاعيادةَ .. وإذا بي لاجيء في الدنمارك .. أما موسكو فقد تحولت إلى عصابات تهاجم الناس في مترو الأنفاق وبعض بغايا يتسكعن في الشوارع حتىّ ساعاتٍ متأخرةٍ من الليلِ وينتشرنَ مثل البكتريا بعواصمَ أخرى ثمَّ انكمشتْ تلك الذاكرة التي احتفظ بها موسولوف على الرغم من الكبرِ والعناءِ لتُصْبِحَ رسالة غريبة قصيرة كتبها إلى صديقٍ التقاه مرغَماً قبل عقود غير أني أعدّني الخاسرَ الأكبرَ في تلك المعادلة لا لكوني خسرت الزواج والعودة ثانية إلى بلدي بل لأني أضعتُ الحلم في أن أصبح طبيبا على الرغم من أني تابعت خطواتي في كلية الطب حتى اجتزت خمس سنوات .

كنتُ على وشك أن أنجز كلّ شيء.

خطوة واحدة فقط لمّا تزل بيني وبين حياة جديدة أسعى إليها.

لكنَّ رسالة اليوم المتأخرة البعيدة المنال غير المتوقعة جعلتني أتغيَّر تماماً فأبدأ من جديد وأسلك طريقا آخر ...

- من حسن الحظ أنّك هنا تعرف الروسية وإلاّ لاضطُرِرتُ إلى السفر حيث السفارة في كوبنهاغن!

تلك المرأة تنتشلني من ذكرى جميلة فأبتسم وعيناي تتابعان السطور .. مازالت تتحدث باقتضاب فلم يخبرني السيد باول على الرغم من ثرثرته المستساغة معي عن أسيرٍ روسيٍّ اسمه "موسولوف يوجيني" .. ليس مهما أن يعرف أو يتذكّر كل الأسماء التي لايربطه بها أيّ شيءٍ سوى الشفقة والأسف بسبب حظٍ عاثر دفع أصحابها إلى إسطبل يعمل فيه فهناك أسماء كثيرة ذابت في ملامح الزمن القاسي وتلاشتْ شيئاً فشيئاً ... الحظ العاثر الذي واجه "موسولوف" دفع بي إلى لقاء "باول" صديقنا الذي بقي واقفا مكانه فودّع أسرى من قبل واستقبل هاربين فيما بعد .. الحق إني أضحك في سرِّي من طفولة رأت حروفا غير الإنكليزية تحملها بواخر قادمة من بعيد إلى رصيف " الداكير" في العشار، بواخر ترفع المنجل والمطرقة فتعترينا دهشة – نحن الصغار- ونعجب لحروف تشبه الإنكليزية ولاتشبهها. أ .. ب .. س .. A .. B .. C هذا حرف R هو باء .. ذاك مثل القبّة المعقوفة .. بدت الحروف الإنكليزية مقلوبة كما هي عليه الدنيا الآن ومنذ ذلك الوقت عرفت أن هناك حروفا غير الإنكليزية التي بدأنا نتعلمها في المدرسة الابتدائية .. موسكو مازالت تطاردني على الرغم من ضياع

حلمي، تناثرت ولحقتني حروفها.كنت أساوم مغربيا في إحدى زياراتي إلى برلين على جواز سفره. أخذ مني مبلغا لايستهان به.لاأدري كيف أبدل صورته بصورتي .. رحت أتلفّت حولي مثل لصّ تطارده عيون العسس .. وبين لحظة وأخرى – فيما لو بقيت حتى الإعلان عن موت جواز سفري - أتوقع الشرطة السرية تطرق علي الباب فتضع القيد بيدي كي ترحلني من دون شفيع إلى المطار .. كوابيس تخلعك من نومك لتقودك إلى الحرب إو العقاب الصارم .. دخلت بكابوسٍ جثم على صدري وقبل أن أغادر كان هناك كابوس غير الربو يخنق أنفاسي .. لكن روسيا بعد هربي أضحت مثل ماردٍ ضخمٍ حشر نفسه في قارورة صغيرة تكسرت فلم تسعه الآفاق وقد حكم الزمن والحرب التي اندلعت فجأة على أن ينفياني إلى " هيذر سليو" القرية الهادئة الصغيرة حاملا كتابا من إدارة شؤون الأجانب حيث وجدتُ السيد " باول نيكلسون " ينتظرني هنا في هذه المدينة الوادعة. كنت على علمٍ سابقٍ أن ألتقيَ عائلةً تتبناني فتساعدني على حلّ مشاكلي .. يومها إذ الرحلة الجديدة بدأتْ وضعتُ خدي على زجاج النافذة واسترخيت في الحافلة .. لم أكن قط لأدرك الضجر والملل والقتام في بلدانٍ صيفها يسطع وشتاؤها قتام. كنت أعرف الشتاء حقاً في موسكو والربيع بألفته الناعمة. أصادق أربعة فصول متباينة، وهنا في هذا البلد الوادع الذي لايقسو عليّ شتاؤه لأميِّز الفصول .. الزمان يشبه بعضه بعضاً .. تابعتُ الحقول والمزارع والخضرة الرائعة .. لحظات فقط ثم رحتُ أفكِّر بشكل العائلة التي

تستقبلني .. أهل جدد لي. عليَّ أن أنسى عمي الثري وابنته وعمتي الطيبة وأبي، وياسين نفسه الذي صادف وجوده في بيتنا خلال إحدى المكالمات فهتف بي: اشتقت إليك هل تأتي هذا العام؟

أمسح العودة من ذاكرتي تماما.

عالم جديد كل الجدة يختلف تماما عن العراق وروسيا بل يَعِدُني بمستقبلٍ حيث لامنغصات!

أقطع صلتي بالماضي ..أتجاهل بل أتناسى الخوف من الروس الذين هددوني بترحيلي إلى بلدي مالم أجدد جواز سفري .. مايهمني أن أخرج بجواز آخر أشتريته في برلين قبل أن تضع موسكو قبضتها الخشنة على كتفي فأتحول في لحظات من طالب للطب مقيم إلى مقيم غير شرعي .. جاسوس .. مهرب .. أيٌّ لقب يلصق بي .. قد ينزعج مني صديقي موسولوف .. إذ لاأدري لِمَ كانتْ جدتي تختار الروس حين تسبُّني. من حقها أن تسبّ اليهود وربما الإنكليز الذين احتلوا العراق أيام كانت شابة قبل أن تتزوج جدِّي .. لكن الروس؟! .. لابد أن أعترف أنّي كنت أزعجها وأنا طفل .. بالتحديد في سنيِّ المدرسة الابتدائيةِ حين أختبيء تحتَ سريرها وأموء كالهرِّ أحيانا تبلغ مشاكستي الى الحد الذي أنغِّص عليها متعتها في تناول الشمّام الذي تغرم به، فلا يهمها بعد ذلك أن تتوقف عن ازدراده فتمسح شفتيها بظاهر كفِّها لتصرخ بي: مسقوفي إنكليزي يهودي .. مع ذلك لم تنقل أيّاً من مشاكساتي لوالدي، كانت تعاقبني فقط بطريقة أخرى .. لقد أودعَ أبي مصروفنا اليومي أنا وأختي عندها ولكوني أجعلها تقفز من

فراشـها قبـل أن تصـرخ بـي يهـودي إنكليـزي مسـقوفي، فإنهـا كانـت تغيظني حين تمنح أختي في بعض الأحيان ضعف حصتي من النقود، أمـا أخـي الأكبـر ياسين الـذي يكبرنـي بـأربع سنوات والـذي بـدأ يأخـذ نقوده - حالما أصبح فـي المرحلـة المتوسطة - مباشرةً مـن أبـي فإنهـا تعطيه قطعة نقدية من محفظتهـا الخاصـة التـي اعتـادت أن تخفيهـا فـي الصندوق الصـاج المُحْكَم الإغلاق ثمّ تذكر لأمّي أمامي أنَّ تلك أفضـل طريقة تغيظني بها!

وكنـت مـن قبـلُ - شـأن الكثيـرين - أتصـوّر أن للمسـقوفيين أشـكالا تختلف عنّا، كلّ هذا بسبب جدّتي التي لم أحضر عزاءها .. ماتت وأنـا فـي السـنة الثانيـة الجامعيـة بعـد سـنةٍ مـن انـدلاع الحـرب فلـم يكـن بمقدوري السفر .. علاقتي بناتاشا الروسية مقطوعة تمامـا .. لقد بكت كثيراً يوم غادرتُ موسكو، قالت إذهبْ إلـى أي مكـان تشـاء ولاترجـع إلـى بلـدك .. ثـم تمتمـت: أَمَـا آن لهـذي الحـرب أن تنتهـي جنـون .. كـل مايحـدث جنـون .. سوماسيشـتفيا .. جنـون سوماسيشـتفيا والله ! لكنـي مثلمـا قطعـت مـابيني والعـراق مـن صـلة تركتهـا هـي أيضـا إلـى غيـر رجعـة .. أتجاهل .. بـالأحرى أنسـى .. أحـاول أن أكـون منطقيـا .. هنـا عائلة جديدة تنتظرني .. اليوم صباحا بلَّغتنـي إدارة الإقامـة أنـي أغـادر إلى مدينة " هيذر سليو" حيث تعيّن لـي المسؤولة الاجتماعيـة عائلـة تتصل بي ..

تتبناني ..

هذا هو المستقبل ..

كأيِّ طفل تجلبه من فيتنام أو الصومال إحدى العوائل الغنيّة ليعيش في كنفها مُرفّها ..

لأبدأ من جديد أنسى جلّ ماسلف:عمِّي وأبي وحورية التي كدت وفق تقاليد العائلة أتزوَّجها إكراما لعمِّي الذي حصلت على منحة دراسية بجهوده .كان من المفروض أن أدرس في لندن أو أمريكا ويبدو أن عمِّي الملاّك التاجر صاحب البساتين الواسعة اختار الاتحاد السوفيتي لعلاقته ببعض الشخصيات المعروفة التي تقِدر أن تدبِّر بعض المنح الدراسية لدولٍ معروفة سلفاً ولم يردْ أن يضيف إليه أعباء مادية ثقيلة لو اختار لي أحد بلدان أوروبا الغربية. لم يكن سياسيا محترفا إلا إنه عام 1963 حين قتلت الحكومة العشرات من اليساريين وزجت بالكثيرين في السجون كان عمي إما بدافع الطيبة أو الشفقة ولعله الحماس العشائري ولربما الظهور بمظهر النبيل الكريم يمنح بعض عوائل المعتقلين شيئا من المال أو ملابس وبضاعة الأمر الذي جعل بعض الساسة يتذكرون معروفه القديم .. كان السّواح والطلاب العائدون من روسيا يتحدثون عن الحياة الرخيصة هناك وجمال النساء فتشرق في وجهي بسمة رضا ..ليست حورية خارقة الجمال مثل ناتاشا ولاأظنّها تقدر وهي الشرقية الخجول أن تمنحي مثلها أو على الأقل تتكور مثل بجعة بيضاء جميلة .. لكنَّها ليست قبيحة .. مقبولة .. أظنها ترغب فيَّ ولم يبد منِّي تجاهها أيُّ نفور .. بل أعرضتُ عن أن أجسَّ أحاسيسها وأسبر أعماقها .. هل أعدّ نفسي وصولويا إذ جاريت عمي من أجلِ بعثةٍ دراسيّةٍ أكون بعدها طبيبا

ترفع به العائلة رأسها .. سمعتُ أبي يتحدّث بصوت خافت لأمي عن عظمة ابن عمه زوج أخته الغني وطيبة قلبه وحنوِّ أخته واهتمامها بي يقول: كثير من الأثرياء يتنكرون لأقربائهم البسطاء يأنفون من أيّة صلة قربى لهم بهم أو نسبٍ وهاهو أبو حورية يتبنى ابننا .. فيه البركة كلّ البركة .. بعثة إلى موسكو بجهوده .. وزواج .. ثم يضيف قائلا آه لو لم يخترْ ياسين الفرع الأدبي لكان الآن يتمتع ببعثة دراسية إلى ألمانيا الشرقية أو روسيا بجهود زوج عمته!أتذكر هذا الحوار الذي سمعته خلسةً وأنا أطالع جسد " ناتاشا"في أول لقاء يجمعنا بفراش واحد .. لم تكن أول امرأة عرفتها في موسكو غير أن جسدها بقي الأكثر سطوعا في ذاكرتي من أية امرأة أخرى .. حتى المرأة التي جمعني وإياها فراش واحد للمرّة الأولى بعد حرمان طويل في العراق كاد جسدها يتلاشى من ذاكرتي .. لاأسميه حبّاً .. ربّما هو إعجاب بناتاشا ..جسد أشقر رائع .. حفظت خرائطه ففي أيّة زاويةٍ منه أثر للمسة مني .. كان مثل آلة البيانو التي مرَّت على مفاتيحها كلِّها أنامل عازف محترف .. في أحيان تحتلّ مجلس شهرزاد فتحدثني أحاديث غريبة وهي تبتسم ابتسامة بريئة صافية مثل جسدها البض: ياسيدي حضرتْ إلى مُجَمَّع الطالبات في دورة لمدة ثلاثة أشهر سيدة عراقية متزوجة تدرس الروسية في السنة المنتهية بجامعة بغداد .. تعرفُ أنهَّا عثرتْ على صديقٍ روسيٍّ في أولِّ أسبوعٍ وعندما سألتها طالبة شرقية تدرس الطب عن إمكانية أن تعلَق بنطفة شقراء تسبب لها إحراجاً أجابت وهي تلوِّح بصورة زوجها وتضحك

ضحكة ماكرة: انظرْنَ إنّه أشقر ولن يكون هناك لبس!!لاشك أني- في هذه اللحظة التي أسترخي على فراشي كخليفة خليع وأسمع من شهرزاد عن خيانة ما لسيدة ما - أُقنع نفسي في سرِّي أنّ تلك الجارية الجميلة الشقراء تظل طول عمرها تلثغ بحرف الخاء .. أخبك .. خبيبي .. تقبلني وتحكي لي قصصا عن الخيانة وإنّه ليس من حقي أن أعُدِمَ مثل صديقي سييء الصيت شهريار كلَّ النساء الخائنات في الوقت نفسه ليس من حقي أن أسأل هل تزوجت حورية أم هل كان موسولف متزوجاً عندما وقع في الأسر بل أُعْرِضُ عن مجرَّد التفكير بأيِّ حضن ترقد ناتاشا التي جلست في محل شهرزاد تحكي لي في هذه الساعة بل هو الفضول .. ربما كانت تحلم أن تأتيَ معي إلى العراق. شأنَ كلِّ الروسيات حين يحلمن - زمن الشيوعية - بالخروج من بلدهنَّ عن طريق الزواج .. فليس هناك أيسر من أن تعشق شرقيا يحملها على فرس بيضاء إلى عالم تسمع عنه وتشاهده في الأحلام .. أما آخر لقاء لنا فكان ساعة خروجنا من النفق لحظة هصرتُ يدها وطوَّقتْ عنقي بذراعيها .. وداع حاولت اجتنابه .. لحظة صعبة .. ماذا لو رحلتُ من دون أن أودِّعها .. لم أبكِ غير أن هناك حباتٍ بيضاءَ صافيةً كالبلّور عَلِقت برموشها فانعكس من بينها ضوء خفيف شاحب!

- إحذر أن ترجع إلى العراق!

- لست مجنونا حتى ألقي نفسي في أتون حرب لايعلم إلا الله نهايتها!

ثمّ وهي تنفث الهواء:

- مجنونـان يجلسـان علـى برميلـي نفـط سماسيشـي" وضـغطت علـى يدي":أين تذهب؟

لـم تكن تـدري أنـي قبل مـوت جـواز سفري اتفقت مـع مغربـي علـى الذهاب إلى برلين وسأحلّق بجواز آخر عبر بلدانٍ لاتبعث الريبة حتـى أصل إحدى دول الأمان!

ليس أمامي إلا إحدى الدول الإسكندنافية!

- أحبّك!

كان بإمكاني أن أكذب عليها أوعدها أني سأفعل مثلمـا فعل بعض مـن غـادر روسـيا مـن الطـلاب الـذين عـادوا وتزوجـوا مـن صـديقاتهم الروسيات حالمـا رتَّبـوا أمـورهم. لقد تغيـر الـزمن .. هربـتُ وتركـت ناتاشا ..وظل موسـولوف يلاحقنـي فلـم يكـن أمـامي مـن منفذٍ سـوى أن أنتحـل شخصـية بـاول .. أمـامي وجـه أشـقر يلـوح عليـه اصـفرار كـان صاحبه ينتظرني منذ زمن .. هذه المرة حدثني ثانيـة معلِّم الجغرافيـة الذي جمع بين موسكو وبغداد علـى خـط طـول واحـد .. فنسيتُ جدتي التــي لاحقتنــي بقَرَفِهــا مــن اليهــود والإنكليــز و المســقوفيين الــذين طاردوني فيما بعد .. قلت من قبل كـان حينهـا المدرّس يـذكر لنـا نحـن طـلاب الصـف الأول المتوسـط أن سـكان شـمال الأرض عمالقـة شـقر أطول عملاق فينا تصل هامته إلى كتفـي أقصـر اسكندنافي .. لكنـي لا أظنّ أنّ الأستاذ رآى ابـن حارتنـا العمـلاق أمّـوري الـذي قـارب طولـه طول الإسكندنافيين أما الرجل الذي استقبلني فيبدو أنـه بطـولي تمامـا،

ليست مصادفة أن أعثر على صديق يشترك مع جدتي في التفكير يعجب بالألمان ولايكرههم .. لايكره الروس لكنّه لايحب الإنكليز. يراهم مراوغين دهاةً هل تصدق أن " باول" يختصر كلّ ذلك بكلمة واحدة: الإنكليز الملاعين for satan .. لم أفهم مايعنيه بالضبط، غير أنّه سألني ذات يوم:

- لماذا أصرّ ديغول على رفض عضويّة الأنكليز في السوق الأوروبيّة المشتركة؟

- خوفا من منافستهم له.

- هذا تحليل سطحيّ ..

شعرت بضيق من صراحته .. انزعاج مكتوم وتذكرت أن عليَّ أن أقبل رأيه مهما كان لاسيما أنه – شأن بقية الإسكندنافيين- لايجامل في الحديث من غير ضرورة:

- المنافسه موضوع خاص بحقل الاقتصاد الذي يحتل الأولوية في تفكير السياسيين!

- الألمان والإيطاليون يمكن أن يدخلوا حلبة المنافسة بشكل أكثر خطورة.

- ماذا يدور بذهنك حول الموضوع؟

- الإنكليز خبثاء، وديجول حقود لاينسى الماضي أبدا، مباشر في حبه وكرهه مثل العرب صريح مثلكم أنتم، كان يرى أن تقتحم أوروبا

الغربيـة ألمانيـا مهمـا كانـت الخسـائر البشـريّة، وكـان الإنكليـز يـرون توريط الروس بالتنـازل عن أوروبـا الشـرقية التـي ستكون من حصـة روسيا ثمّ فيما بعد ينخرون المجتمعات الاشتراكية من الداخل، وفعلا هذا الذي حدث فها نحن نرى انهيار الشيوعية، لكن ديغول رغب عن خبث الإنكليز، وأصرّ ألاّ يقبلهم في السوق المشتركة مادام على قيد الحياة.تصـوّر مـدّ يـده للألمـان أعدائـه الواضـحين وأعـرض عـن الإنكليز.

- قصدك أراد أن يختصر الطريق !

- طبعاً طبعاً " كان يهز رأسه بشيء من الجديّة والانفعال"

ببعض التردد:

- هل تحب الألمان!

- لا أكرههم فأنـا لاأكره أحدا قط لكنـي معجب ببعض الأخـلاق التـي يلتزمونها على الرغم من طابع العنصريّة المعهود عنهم.

قاطعته بفضول كما لو أنه اعتراض:

- عجيب كيف تجتمع الأخلاق والعنصرية؟

فقال بثقة عبَّر عنها من خلال بروده:

- الواقع لايمكن نكرانه وقد ظهر ذلك في الحرب العالمية الثانية كانت برلين محاصرة أمّـا الفرد الألمـاني فقد بدا فـي أسوأ تلك الضـروف بأقصى درجات الضبط !

- الروسي أيضا خلال حصار ستالينغراد بدا بالصورة التي تقولها.

فرد ممازحا:

- وهل قلتُ إن الروس غير منضبطين؟

- أظن أنّ أوروبا كلها منظَّمة لأنها تصنع كل شيء فهي تنتج غذاءها وتُصَنِّع الآلة التي تستخدمها بالتالي لايمكنها أن تكون غير منضبطة مع نفسها.

فردَّ بعد هزة من رأسه:

- نعم كلامك صحيح، هذا في حالة السلم وللحرب مفهوم خاصّ .. تخيّل قوات كبيرة تحاصر كوبنهاغن أو باريس أو لندن ستعم فوضى كبيرة أمَّا خلال حصار برلين فقد وُجِدَتْ حالاتٌ لألمان ماتوا جوعا في بيوتهم من غير أن يفكر أحدهم أن يقفز إلى بيت جاره الفارغ ليسرق مافيه!

قلت بشيء من السخرية واللمز وقد تذكرت سباب جدتي لي:

- أتعرف أن جدتي لاتحب الإنكليز مثلك!

Really

- اعتادت حين تسبني تقول لي إنكليزي!

- داهية مثلهم!

- بل خبيث ونتتن -أراك تتفق معها!

- يبدو أنك مشاغب كبير!

ثلثا تفكير جدتي صحيح ديغول نفسه يتفق معها وباول .. ربما أجد آخرين أيضا .. معانٍ جديدة يتساوى فيها السياسي المخضرم والمثقف ليست جدتي إذاً وحدها في هذا العالم .. مشكلتها الوحيدة أنها كانت ترى بين الأرض والقمر هواء عاصفا يمنع الإنسان من الوصول إلى أي كوكب كان ولا أحد في البيت يرغب في أن يعترض عليها .. أو يقنعها بفراغ هائل بين الكواكب والنجوم .. لم تتغير وإن تغيرتُ أنا وأصبحتُ أكثر رزانة، أما هي فقد صارت تنطق عن لثغةٍ خفيفةٍ بعدَ أنْ تساقطتْ أسنانُها فلم أكن بحاجة إلى أن أدلف تحت السرير بل أفعل ذلك حين نلتقي وجها لوجه فتبتسم وهي تقول:

مثقوفي إنكليثي يهودي!

وها أنا أجدُ بعض كلامِها يوافق سياسيِّ أوروبا أم أنا الذي اختلط عليَّ الأمر!

أكاد أفهم ولا أفهم؟ دماغي يصبح مثل بالونٍ كبيرٍ .. لو أن عمي الثري بسط يده قليلا فاختار لدراستي وُجهةً أخرى مثل لندن لكنت سعيدا الآن مع العلم إن جدتي جمعت الروس والإنكليز في سلّةٍ واحدة! .. ربما تغيّرت أمور كثيرة في حياتي ..ولوجدتني أستدعي " حورية" ولاستغنيت عن المغامرة والهرب من موسكو التي مازالت تلاحقني .. لغط في دماغي أيها الصديق العزيز " موسولوف" كيف عشت في موسكو خمس سنوات لم ألتقك خلالها أنا المسقوفي وأنت

قريب منِّي ربما على بعد أمتار .ووجدتك في الدنمارك ذاتَ يوم وأنت مازلت في موسكو؟

منذ اللحظة الأولى أدركت أنّ صديقنا المشترك يعاني من مرض ما، الأمر الذي مازال موسولوف الطيب يجهله.ربّما لم ارتح له في البداية. أو وجدته جافا لايجامل، قد لاترتاح إليه للوهلة الأولى ثم تكتشف روح الأنس فيه والنكتة وخفة الدم .. قسمات وجهه تخبرك أنه شرس الطبع .. فظّ .. منغلق على نفسه يتحاشى الآخرين .. يحبذ الصمت ثم تكتشفُ إذ تعاشره أن حساباتك السابقة عنه وردت عن خطأ لأنك عن قربٍ تجده أكثر ألفةً مما لو تطلعت في وجهه من بعيد .. كان ينتظرني في مكتب البلدية، وحالما قدمتني المسؤولة إليه غادرت المكتب وتركتنا وحدنا بضع دقائق .. قال لي مباشرة من دون مقدمات كأنه هم أن يزيح أية عقدة بيني وبينه:

- أين تركت أهلك؟

- في العراق!

- بغداد العاصمة؟

- لا إنهم في مدينة البصرة.

- أووه البصرة ليست بعيدة عن الحدود.

وأردف هو يبتسم ابتسامة باهتة:

- تتصل بهم؟

- لقد غادروا المدينة بعد السنة الثالثة للحرب ولاأعرف أين هم الآن؟

- أووه حرب !

بانفعال يشوبه بعض البرود، لاأدري إن كنت أروم من وراء ذلك استدرار الشفقة:

- خاصةً الجنوب .. البصرة الميناء الوحيد منطقة حربٍ مباشرة !

بعد قليل من التأمل:

- هل لديك أخوة؟

- أخ وأخت متزوجان ويعيشان بعيدا عنا.

- على أية حال أنت أحسن حظا من أقرانك الذين يمارسون الآن الحرب في الخنادق!

فقلت مؤكدا كلامه:

- لعلّ الكثيرين منهم أو أغلبهم قُتِلوا.

كان يعرف سلفاً أني درست اللغة في معسكر اللاجئين ستة أشهر فكثيرا ما كان يستخدم الدنماركية مطعمةً بكثير من المفردات الإنكليزية ولم تزعجني أسئلته قط، ولم يكن ليعنيني أنّه اطلع على تلك المعلومات من ملفي في البلدية أم لا فمن حقه أن يعرف عني الشيء الكثير مادام هو الشخص الذي تبناني إذ بدا أنِّي في المعسكر لم أكن لأثق بأحد أو أتحدث كثيرا مع الآخرين من عربٍ وغيرهم. كنت في عزلة.لاأنكِرُ أني فعلت ذلك كوني ترفعت عن مخالطة من

أعدّهم أقل مستوى مني ثم اقتنعت أن عزلتي تجنبي مشاكل قد تعيق البتَّ في ملفِّي غير أن حُبَّ السيد باول للكلام وطريقته في الثرثرة جعلتني آنس له بل أبادر أحيانا بالكلام لأتابع حديثه، فسألته:

- هل زرت العراق من قبل؟

اتسعت عيناه الذابلتان ونمَّت شفتاه عن ابتسامة واسعة:

- لم أزر من الدول العربية إلا الإمارات قبل عشر سنوات.

بداية تعارف جديدة .. الوجه الذي لم أرتح له كَشَفَ لي عن طيبةٍ نَفَتْ بقايا هواجسي:

- ذهبت للسياحة؟

- بقيت هناك بضعة شهورٍ تقريباً غرضَ الإشراف على إسطبل الخيول في دبي!

- كيف وجدت الإمارات؟

نقود كثيرة لكن "زادت ابتسامته وعقب بلكنة عربية " حر كتير وغبار! "

- مثل البصرة " واستدركت" فقط نحن في الليل أثناء الصيف نستطيع النوم على سطوح المنازل ثمّ ارتسمت على وجهي علامة ارتياح:

- تتكلم العربية؟

- لا .. كلمة أو كلمتان فقط !

ثم قال ونحن نهمُّ بالمغادرة:

- الليلة تبيت عندي وفي الصباح تأتي موظفة من مكتب البلدية تصحبنا إلى سوق المدينة كي نتبضع لك بعض اللوازم الضرورية ثم نذهب مباشرةً إلى البيت الذي تقيم فيه!

أقلّني بسيارته إلى منزله في أطراف المدينة بعيدا عن كل ضجيج وصخب في مكان أوحى إليَّ منذ الوهلة الأولى من خلال نسق الشوارع والبيوت أنّه خاص بطبقة غنية إلى حد ما .. تلك الليلة للمرة الأولى أدخل بيتا إسكندنافيا .. انتعش جسدي لجو دافيء دغدغت - حالما دخلت المنزل - مسحتُه الناعمة كتفيَّ وأطرافي الباردة .. رائع جدا أن تلتمس كتفاك الدفء كما لو أن عينيك للمرة الأولى سقطتا على مشهد مثير في الخارج فجئتَ مباشرةً من هناك من الشمال أقصى نقطة في الدنمارك حيث تتعانق الأمواج .. مياه البحرين سككراج وبحر الشمال .. أقف منفصلا عن يقية الجمع أراقب سورات المياه والأمواج المسعورة، أفاعٍ تتعانق أو تتصارع، تتوغل عيناي بعيداً ومازلت في مكاني مثل أيِّ بوذي يبحر - وهو ثاوٍ لايتزعزع كجبل- عبر الأميال والسنين، مشهد الأمواج والأفاعي يختفي، ويتحول إلى ضوء خافت ينبعث من مصباحين متقابلين فيضفي عليَّ مزيدا من الإحساس بالدفء، و على الصالةِ المستطيلة رونقاً يلقي ببريقه الخافت على الموقد الغازي والرفِّ الذي علته لوحة طبيعية لغابة كثيفة اختصرها لونان فقط هما الأبيض والأسود! .. كانت نار الموقد كحيات وديعة ناعمةٍ ملساء تتلوى على أنغام نايٍ هنديٍّ

تـذكِّرُني بمشـهد عنـاق أمـواج البحـرين الـذي صـحبتنا إليـه ذات يـوم مجموعـة مـن رابطـة "أصـدقاء اللاجئين" .. إنـّه البـرد والـدفـء همـا عينايَ وكتفايَ وصوت السيدة " ليزبث" وهي تشير إلـى طبق سـاخن لمآ يزل البخار يتصاعد منه:

- لم نطبخ طعاما اسكندنافيا خاصـا بنـا لأنـك لاتأكل لحم الخنزير كمـا أظن.

كان أبي يقول وهو يلـوي شفتيه مشمئزاً عند ذكر الخنزيـر ذلك فـأر كبيـر يثيـر الغثيـان وفـي موسـكو حـدثتني نفسـي أن أجرِّبَـه .. أكلـت شرائح ذلك الفأر مـع ناتاشـا، وتلـذذت بالصوصـج وقد أجبت مضيفي من دون تردد:

- أنا مسلم لكنني لاألتزم بالكثير من قضايا الدين!

وقال يخاطب ليزبث ويتحسس الطعام بأنفه:

- رائـع جـدا نحـن بحاجـة إلـى طعـام سـاخن يطـرد رطوبـة البـرد مـن أجسادنا.

سألني ونحن نجتمع حول منضدة الطعام:

- هل رأيت مدينة أخرى غير هيذر سليو؟

- المعلم في المعسكر بسط أمامنا خارطة الدنمارك وقال أنظروا رأس رجـل بقبعـة وأنـف هنـاك عنـد القبعـة سـتذهبون معنـا لتـروا البحـرين يلتقيان من الشرق والغرب!

قالت ليزبث كأنها تبحر بعينيها:

منظر جميل لكنه مخيف!

واستأذنني حالما فرغنا من الطعام بلطف:

- هل تسمح أن نشغل جهاز التلفزيون؟

- بالتأكيد.

- هناك أخبار عن الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية.

تذكرت أني عدت قبل قليل من بحيرة البجع، ثم شاهدت كما لو أنيّ في حلمٍ أو حقيقةٍ بجعةً مختلفة اللون ثم انحدرت صوب موج يتعانق هناك في الشمال مثل الافاعي .. وأشارت السيدة "ليزبث" وهي تنظر إليّ نظرة ذات مغزى:

- أظن أن البلاد العربية بحاجة إلى رجل شجاع يحمل على رأسه وحمة كبيرة مثل كرباتشوف!

كانت تتحدث باقتضاب عن سنوات النفي إلى سيبريا وستالين وتبدي فرحها بإطلالة دوبتشك على المتظاهرين في براغ .. وتركز انتباهها على صورةٍ ما ثُمَّ شريطٍ للسيد غورباتشوف وهو يتجول في عدة مدن ويعد بالدمقراطية وهتفت:

fantastisk

وعقب السيد " باول"

- من كان يصدق التحول !

- تعرف يا أبي أنّ كثيرا من النساء معي في العمل معجبات بالوحمة على صلعة كورباتشوف!

فقال مبتسما:

- ومن هي السعيدة منهن كي تصبح أمّها حماته!

والتفتَت إليّ قائلة:

- سيساعد سقوط الشيوعية في أكبر دولة على تغيير النظام في بلدكم والبلاد الدكتاتورية الأخرى.

فهزّ الأب رأسه وعقب يسألني:

- ألا تظن ذلك!

أمنية أقرب إلى المحال .. قد ترى الأمور بعين واحدة فالشرق والغرب لهما نفوذ وهناك البشر ليسوا روساً أو جرمانيين .. بيننا وبينكم أكثر من ثلاثة قرون .. زراعة وصناعة وضباب لقد قال لنا المغولي ذات يوم وهو يفرغ من اقتحام بغداد ليس معي سكين أذبحكم بها ابقوا جالسين في مكانكم حتى أعثر على شيءٍ ما حادٍّ وأعود إليكم .. نكتة سوداء قديمة لاتصلح أن تكون قصة أطفال ولامثلا أو حكمة .. أما أنا فلم أبقَ في مكاني .. هربت من بغداد وموسكو قبل أن أتعرّف السيد موسولوف الذي عجز عن الهرب طيلة نصف قرن قلت:

- ربما .. ربما ..

وقال السيد باول بعينين مشرقتين:

- لابد أن يظهر رجل ذو وحمة على رأسه في البلدان العربية!

كأنيّ أستبق الأحداث:

- من عاش في موسكو وعايش أهلها عن كثب يخمِّن أن النتائج قد تكون وخيمة؟

فقال بحماس:

- تظن الحركة الجديدة تنتكس؟

وقالت تسبقني:

- قد تحدث أعمال شغب!

أكدتُ كلامها:

- بالتأكيد وقد يقوم الجيش الذي كانت له اليد الطولى إبان الشيوعية بانقلاب لكن ليس هذا ماقصدت بل الذي أعنيه بالضبط أن روسيا الرأسمالية قد تكون في المستقبل أخطر على مصالح الغرب من روسيا الشيوعية.

- لكن لايمكن للغرب أن يوقفوا ذلك مادام الروس قرروا التغيير.

قلتُ كأنّي أعترض أو يائسٌ من أمر ما:

- أتتوقّع الدول الغربية تشجع الصين فيما إذا اتجه الناس فيها للتغير؟

فنطق بزفرةٍ طويلة:

- أووه الصين ليست دولة أوروبية!

فعادت تسألني من جديد:

- هل تنوي مغادرة الدنمارك حالما يتغير الوضع في بلدك؟

عندئذ بسط السيد " باول" يده معقبا كأنه يجيب عني:

- عليك أن تبقى هنا أفضل لك!

كنت ألمح بعض الصور التي تنقل المظاهرات، فأفهم شيئا ما وانبرى السيد "باول ":

- آمل أن تتمكن بعد عدة شهور من دراسة اللغة على فهم الأخبار فمستقبلك هنا!

ياسيدي مثلما واجهتني الحروف المقلوبة على البواخر وأنا صغير ثم عرفت أنها حروف روسيَّة فلم تكن غريبة عني حين دخلت موسكو لقد .. انعقد لساني وأنا في المعسكر تحت وقع أحرف جديدة æ ø å والهواء الذي يخرج من البطن قلت بشيء من المباهاة:

- في المعسكر قضيت أكثر من ستة أشهر وكان هناك معلمون ومعلمات يحضرون لتدريسنا اللغة .. في البداية واجهت صعوبة أية صعوبة لغة جديدة ليست الإنكليزية التي تعلمتها في الصغر ولا الروسية وأنا في سن العشرين .. تعثرت في البداية لكنني تجاوزت إلى حال أفضل الآن وقد استفدت تماما فها أنا افهم شيئا من الأخبار!

وقال " باول" مؤكدا كأنما يهم بوضع قبضته على فخذه:

- فعلا الدنماركية صعبة لكنك لما تزل شابا!

فأجبت بهزة من رأسي وتابعت:

- المعلمة أعطتنا في بدء دراستنا ذات يوم أقراصا نمصها كي تلين حناجرنا المتحشرجة لخشونة اللفظ والنفخ من البطن!

وسكت لأجدني هذه المرة مرغما على أن أضحك في سري من نفسي فقد كنت أظن لغة الإسكندنافيين – شأني شأن الكثيرين- الإنكليزية وإذا بي أكتشف أني مثل جدتي أخلط الأمور ولا أميِّز بين الموسكوفي والإنكليزي واليهودي عليّ أن أبدأ من جديد، لغة أخرى وعالما آخر .. فأنا لا أحمل في هذا البلد إلا شهادة ممرض .. يرحل بجواز سفر مزوَّر إلى بلدٍ إفريقيٍّ مثل الممرض يوجنيف الذي عمل خلال السنة الثانية في مختبرنا .. لاشغل له إلا الحديث عن إصبعه السبابة وليبيا ودبر جلّود .. نقود كثيرة جعلته أغنى من أي طبيب في الكلية ولو كان بيده لمدَّدَ عقد عمله . كان يحدثنا – نحن الطلاب - دائما عن سبابته والإصبع البلاستك. شغله الوحيد هناك أن يدخل إصبعه في دبر عبد السلام جلّود الذي كان يعاني من التهاب البروستات. كيف كان الرجل الثاني يجثو على ركبتيه ويرفع إليته .. وكنت أقول له ولو أنك يايوجينيف لاتؤمن بالله لكني أقول ساعدك الله إنّ وجه الرجل الثاني في ليبيا لايطاق فكيف بدبره، أما أنا ياعزيزي، فلو لم تكن الدنمارك أمامي لزوّرتُ جواز سفري واتجهت إلى أي بلد إفريقي بشهادة ممرض أو دكتور لايهمّ ولعلني هناك أدخل سبابتي في دبر العقيد نفسه أو أي رئيس وملك كان!

عليّ أن أمحوَ فكرةَ الطبِّ من ذهني تماما .. أبدأ من جديد .. أحيانا أوغل في الخيال .. انتظر في الدنمارك حتى أحصل على وثيقة سفر دنماركية ثم أعود إلى موسكو أواصل دراستي فقد انهار الاتحاد السوفيتي ولست أخشى من أية سلطة ترحِّلني بالقوة إلى العراق .. فكرة تبدو مقبولة لكنها أقرب إلى المحال ..

بعد فترة صمت أعقبت نشرة الأخبار وانقطاع حديثهما وتعليقاتهما عما يجري، نهضت " ليزبث " واستأذنت في الانصراف وقال السيد "باول" وهو يشير إلى باب نصف مفتوح:

- يمكنك أن تنصرف إلى فراشك أي وقت تشعر بالنعاس!

تابع للتهويمة الأولى

" حين ضرب ذلك الأعرابي التعيس الهارب من قومه خيمته وسط مضاربَ لقبيلةٍ أخرى وجدهم يؤذونه كما كان يفعل أهله السابقون من قبل أو أكثر"

تابع للتهويمة الثانية

" أحب الشاعر قريبته، فتقدم لطلب يدها. قال الأب عليك أن تسافر لتجمع لها مهرا، وحالما سافر زوّجوها، وعندما عاد قالوا له ماتت، ودلوه على قبرٍ موهومٍ فذهب عنده يبكي"

من أساطير العرب قبل الإسلام

كنت أفضّل العيش في بيت صغير لأنعم بهدوء وجوّ نقي يخفف من نوبات الربو التي تراودني خلال اشتداد البرد.في موسكو زارني الربو فجأة .. حمله إلى رئتيَ الصقيع القارس .. طبعا ليس بسببكَ أنتَ أيها الصديق القديم الجديد موسولوف .. ولابسبب رسالتك التي وصلت متأخرة .. كنت أحاول أن أحتمي من برد موسكو لئلا أكون مثل جنود نابليون ولا كالجنود الألمان الذين تجمدوا تحت الصقيع لكنّي جئت بشكل آخر .. طالب طَموحٌ يحلم أن يصبح طبيبا ناجحا في بلده .. ربما كنت أحمل معي بوادر مرض الربو من البصرة حيث الغبار والرطوبة والحرّ ليلتها عجزت عن النوم تماما .. كلّما توغل النعاس بعينيّ هبط ثقل على صدري.كابوس تتهجد له أنفاسي .. وحدي ولمّا أكن بعد عرفت ناتاشا .. قضيت الليلة بكاملها جالسا في السرير خشية من أن يقفز على أضلاعي ذلك الكابوس الكريه الثقيل ..

حوافر حصان شديدة الوقع

صخرة .. جبل من جليدٍ يتراكم فوق الضلوع ..

أخيراً أصبح عندي منزل هاديء صغير بعيد عن الصخب وزحمة المدن والهواء الملوّث ... ..

صالة استقبال تتصل وغرفةَ نوم بالمطبخ وثمة حديقة صغيرة يحميها سياج خشبي في أقصى زاوية منه ربض قن للدجاج .. لم يكن في نيتي أن أزيِّن الحائط بأيّة صورة تخص أهلي .. لاأبي أو أمي .. ولا أيُّ منظر طبيعي أو معلم سياحيٍّ من معالم العراق .. خشيةً من أن أثير فضول أيٍّ من أصدقائي الدنماركيين الذين قد أتعرّفهم في المستقبل وأدعوهم إلى زيارتي. هناك فقط منظر طبيعيٌّ لغابةٍ كثيفةٍ تتعانق فيها أشجار الصنوبر وبعض الأشجار التي تغطي أوراقها المتناثرة أرض الغابة وعلى بعد من تلك الأشجار الكثيفة التي ازدحمت بها اللوحة بعضُ بيوتٍ متباعدةٍ ذات سقوفٍ قرميديَّةٍ. كان المنظر كما لوأنه ملخص مصغر لهذه القرية الصغيرة التي آوتني .. .. منظر قريب الشبه باللوحة التي في منزل باول هذا ماخطر بذهني ولعله هاجس مبالغ فيه قد لاأكون مغاليا إذا قلت إن تلك القرية الصغيرة المتناثرة البيوت التي عرفت بردها حنونا لايلسع كالشوك مثلما هو شتاء موسكو استفزتني على الرغم من نعومتها وصغرها ووداعتها هي أيضا ظهرت عليها- حالَ وصولنا نحن الغرباء - بعضٌ من فنونٍ طارئةٍ جديدةٍ غريبةٍ. كانت هناك سرقاتٌ لمِحَالَّ ومشاكلُ في المرقص الذي تحاشيت الذهاب إليه .. هذا ماسمعته من السيد باول أو قرأته في الصحيفة المحليّة .. بعض المحلات خرج أصحابها عن لطفهم وسماحتهم المعهودة وراح أيّ منهم يتبع اللاجيء حالما يدخل للتبضّع خشية من أن يغتنم أية فرصة فيدس على غفلة سلعةً ما في جيبه .

كان أشدّ شيء يضايقني أن أجد عاملاً ما يسير خلفي في الممرات يتابع نظراتي حيث السلع تتكدّس على الرفوف، وربما فكرت في إحدى الليالي الذهاب إلى المرقص فوجدت عند الباب حارسا عملاقا يمنعني من الدخول خشية من أن أثير مشاكل !

هكذا بدا معظم الناس يفكرون حال ظهور الغرباء في مدينتهم الصغيرة الوادعة ..

في البدء تعاطف وأسف لما نحن عليه ..

بعدئذ توجس وريبة وشك ..

إلا أني بدوت بعيداً عن معظم تلك الحالات فقد آليت منذ وصولي ألا أوطِّد علاقتي بالشرقيين القادمين إلى تلك المدينة القرية حيث لم يكن هناك من قبل أيّ رابط يجمع شملنا المختلف .. ربما السحنة وحدها واللسان .. كلنا من آسيا وبعضنا من شمال إفريقيا وآخرون يقال إنهم من جمهوريات شيوعية بدأت تنهار ..أنت معروف كونك أجنبيا .. حتى لو كان عدد نفوس الدنمارك مليارا مثل الصين .. البشرة .. الشكل .. الشعر .. علامات فارقة تميِّزك عن هؤلاء الذين انقلبت شفقتهم عليك إلى شكّ فيك .. لص تهم بسرقة محل ومحروم تبحث عن حورية جميلة في مرقص .. فكيف تستوعب قريةٌ صغيرة تدعى مدينة يعرف أهلها بعضهم بعضا خليطا قليلا من ذوي السحنة السمراء والشعر الأسود .. كنا نبدو- نحن الوافدين الجدد- مثل نغمة ناشزة في سمفونية جميلة هادئة متناسقة .. كان عليّ أن أتذكّر دائما

تلك البجعة السوداء التي تقف مع بجعات بيضاء على ضفاف البحيرة ولا أعرف أن كانت تقدر أن تقف على رجل واحدة!

وإن كنت أشكّ في الأمر.

عزيزي موسولوف

إنك كتبت على عنواني القديم .. إلا إن إدارة الإسطبل حولت الرسالة إلى عنوان منزلي الحالي.من حسن الحظ أن الموظفين في عملي السابق يعرفونني إذ لم أنقطع إلى الآن عن زيارة المكان بين حين وآخر .. نحن ياصديقي العزيز نعيش في قرية صغيرة كأنها لاترغب أن تكبر يكاد أي منا يعرف جميع البيوتات، وكان بإمكانك- نهاية الحرب- أن تبقى معنا لكنك رجعت إلى السجن مختارا!

أو أقول لك بصراحة إنسَ الأمر تماما ..

أما أنا فقد اقتنعت أن هذا البيت ربما كان سيسكنه السيد " موسولوف" قبل أربعين عاما لو تشبث بالدنمارك مثلي، وخطر في ذهني أن السيد " باول" وإن بدا طيبا للغاية ويحب الغرباء إلا إن " موسولوف" الأوروبي الروسي الأشقر أقرب إليه مني .. من هنا- ساعة عرفته- بدأت علاقتي به والرسالةِ التي وصلت إليه من موسكو على عنوان عمله القديم حيث الإسطبل ... . موسكو الصقيع .. البصرة حيث اللهب .. الدفء البرد يختلطان هنا مثلما تختلط مياه بحر الشمال بمياه بحر البلطيق فتهتزّ المياه بسورة عنيفة على شكل أفاعٍ تتلوّى. حرب .. نخل يتناثر .. ثلج يتساقط .. صقيع يجرح كالحراب .. وهناك حرب

قديمة يحكي عنها الأسير موسولوف الذي عاملتَه بلطف ورقة.لم تمانع حين طلب منكَ عنوانكَ بل ابتسمتَ .. اقتطعتَ قصاصة ورق من علبة سجائر دونت عليها شيئا ما ثم دسست الورقة في يدي في لحظة .. رمشة عين .. كأنّك تخاف من الجنود الألمان أن يضبطوك ...

هل نسيت ذلك حقا؟

ربما .. في تلك الأيام رجعت إلى الماضي عدتَ إلى الأغاني الدنماركية التي تصوربشاعة الحرب .. أغانٍ قديمة من القرن التاسع عشر .. حالما قبضت يدُك على الورقة رحتُ أتابع حظيرة الخيول الملتصقة بحظيرتكم – أنتم الأسرى - وأغني بصوت عالٍ فيسمعني الحراس الألمان ولايفهمونني ينظر إليَّ الحارس المكلف بمراقبة الأسرى .. يظل يروح ويجيء غير أنِّي أدندن كأن العالم كلَّه يسمعني:

الحدائق تم فرزها مؤخرا

كانت هناك عاصفة وبستاننا تعرض للجلد

البذور جنحت والأعشاب الضارة على السياج

نير على الرقبة وقفل في الفم

لسباق هذا العام قانونه

كان هناك ضوء في غابتنا

للأسف بفترة قصيرة كل شيء تم افتراسه من قبل العاصفة

معذرة صديقي العزيز كان صديقنا المشترك " باول" يبحث في الماضي خلال الحرب عن أغانٍ يهرب إليها وكنتُ في ليالي الصقيع حين آوي إلى الفراش أضع المذياع معي تحت اللحاف فأسمع من محطة بغداد أغانيَ عن الحرب .. من حسن حظك أنك لم تصب بخرف الشيخوخة .. أَدْرَيْسْ .. أدريس .. عنوانك .. قلتَها بهمسة خافتة كما لو أن إبهامك وسبابتك ينطقان أكثر من شفتيك و يخطان في الهواء " أدريس " وعيناك تحومان تجاه الحرس قبل أن يصرخ أسير شاتما الألمان ذات ليلة قارسة البرد فيتناثر دمه على الجدار .. المهم أنّ الزمن نفسه يذكر بعض ملامحنا وإن نسيناه.ولعلك لو قابلت ذلك الروسي الذليل في المعسكر فأظنّك لاتتذكره الآن .. يا للعظمة ورقة صغيرة تستوعب زمنا كاملا وتعبر أجيالا يجهل أحدها الآخر .. العراقي أنا .. والروسي الأسير المحرر مرتين ثم الدنماركي مروِّض الخيول صديقنا نحن الإثنين. ثلاث مدنٍ تتلاقى البصرة .. موسكو .. هيذر سليو .. حَرٌ وسَعةٌ .. رطوبةٌ واختناقٌ ثم بردٌ وسعةٌ، وهدوءٌ وقريةٌ صغيرة .. الربو يلاحقني إلى هنا في الغابة لكني حين تعرضت للنوبة أول مرة لم أخبر أهلي خشيةً أن أسبب قلقا لهم لكني ياصديقي العزيز سأبدأ رسالتي هذه المرّة بشكل آخر:

والدي العزيز

عمي المحترم

تحيةً عطرة ..

حال تخرّجي في كلية الطب حصلت على عقد عمل في الدنمارك!

نكتة قديمة قد يستوعبها النظام .. الرقيب يمزِّق رسالتي أو يغضُّ النظر عنها فتصل إلى عنوان عائلة هاجرت إلى مكان آخر .. إنه لأمر غريب أن أكون في موسكو ولا ألتقي موسولوف ويكون في الدنمارك ولايلتقيني .. ننسى الزمن .. وهو يتذكرنا فيصطادنا واحدا بعد الآخر .. من يصدق أن حرب الخليج بعض انشطار من الحرب العظمى. شظيّة كانت نائمة فاستيقظت هذه الحقيقة لم أعرفها في حماسة عمي ولافي الكتب الطبية التي قرأتها بل عرفتها من خلال طيبة أناس كبار مرضى مقعدون .. هناك من جاء من موسكو يبحث عن صديق التقاه قبل أربعة عقود على عجل وخوف، وهناك موسولوف نفسه الذي غامر واخترق الفضاء .. أول من قبض على القمر .. عاش مغامراتٍ عدةً .. دخل حروبا .. ابتكر نظاما سياسيا ذا وجه آخر ثم جاء بعد سبعين عاما يبحث عن سروال " كابوي" في الدنمارك والسويد وغرب أوروبا .. اللعنة على العلكة والكابوي اللذين أسقطا دولا ومرَّغا جبين لينن في الوحل .. صديقتي ناتاشا " مغرمة بالعلكة تتفنن بنفخها حتى تنفجر على شفتيها .. الأرض كرة شفافة تستقر على فمها العذب لحظات ثم تنفجر بعدها تقبلني فأشعر بلزوجة شفتيها وبقايا العلكة في ريقي .. ترى هل تفعل حورية مثل ذلك؟ كنا نحن العرب نقدم علكة من ماركة " السهم" للروسيات كي نحظى بقلوبهن. حب مقابل علكة .. طلاب البعثات يجلبون البضائع

من دولهم فنقرأ الحسرة على وجوه الروس .. مسجلات .. أجهزة راديو .. ربطات عنق مفتونون بما عندنا .. الفضاء منفتح أمامهم وهم متشبّثون بالأرض .. أغبياء مثلي ومثل جدي السندباد الذي تعلّق بالنسر وتركه حالما رآى الألماس على الأرض .. أعطيك القمر مقابل سروال كابوي .. علكة .. هات قنينة عطر .. خذ جثّة لينين مقابل عشرة آلاف دولار وزجاجة "كلامور" .. مسجل أشتريه لك من سوق المزاد في البصرة أو دمشق ... كانت جدّتي على حق حين أدركت أن الرياح ستمزقك قبل أن تغامر برحلة غريبة بعيدة .. لم أكن شيوعيا ولعلّي أكره الشيوعية فهل يعقل أن يعاف شخص ما القمر من أجل علكة وسروال .. يطير فرحا مع مذياع جلبه هديّةً له طالب سوري من سوق للتهريب في السيدة زينب .. عالم غير متوازن .. كونٌ سكرانُ لاصاحيَ فيه سوى روسيٍّ طاعن في السن يكتب رسالة بعد عقود من السنين لشخص أشبه بالميت لكني رأيته صاحيا أدركَ كلّ شيء قبل أن تصله الأشياء لم ييأس قط ظلّ يكتب ويكتب وأنا الذي اقرأ كلَّ شيءٍ فأنبهر بما تلتهمه عيناي من سطور وصلتْ مثقلةً متعبةً نافضةً غبار الذاكرة البعيد فأكدتْ سخريتي لقد كنت مشغولا بدراستي وعلاقاتي الغرامية فنسيت تماما أنَّ هناك أسيرا يحاول الهرب بأيِّ أسلوب كان!

كنت حقا أعمى منبهرا بالقمر .. والدرس والأجساد البضة، والقمر نفسه مثل تلك الأجساد يحلم أن يرتدي كاوبويا ويبلِّل ريقه بعلكة يشحذها من طالب أجنبيّ .. وأنا غافل لا أعرف أن هناك شخصا

يحـاول أن يتسـلل قبلـي يحشـر نفسـه فـي رسـالة قـد يكـون كتبهـا عـام 1945 نهاية الحرب العالمية الثانية أو بعد نهاية أيَّة حرب .. عامل الزمن هنا غير مهم على الإطلاق .. الدقائق منبوذة والأيام مكروب معدٍ يتحاشاه الناس . السنوات جذام .. وهي بلا شك- الرسالة أو السنوات - ارتبطت بأحداثٍ عظيمةٍ رحت أتابعها قبل شهور مع صديقي "باول " من على شاشة التلفاز.كانت كأيّ حدثٍ عظيمٍ يهزّ المشاعر.فوز البرازيل في كرة القدم.شاوشيسكو وزوجته أمام محكمة عسكريّة . الحرب العالمية الأولى والثانية مجتمعتان في حرب الخليج التي بدت لانهاية لها .. أذهب إلى الجامعة فأرى طوابير على الأرصفة تلوح بعلم الاتحاد السوفيتي وعلم دولة أخرى .. الرفيق برجنيف يستقبل الرئيس .. الرفيق يودّع . كنت آمل أن ينسى السيد " موسولوف "استعراض يوم غد سواء كان توديعا أم استقبالا وينصرف إلى طابور آخر بانتظار أن يحلّ دوره فيبتاع محارم ثمّ يدلف في طابور ثالث أغلبه من النساء ينتظر سمكا مجمَّدا .. هو لم يرني لحد الآن فقد ظل - وهو في الاسر الثاني - مشغولاً بطوابير لم تنسه اسم "باول " ثمّ أنا نفسي هربت من موسكو إلى كوبنهاغن لأجد مصادفة الرئيس "يلسن " يكرع كأسا من البيرة، يعزف على القيثار ويرقص مترنحاً منتشياً بنصرٍ جديد .. ليس هذا فقط فمن خلال تلك السطور القصيرة العذبة التي تحدت الزمن ووصلت في الوقت الضائع انهارجدار برلين، وتوقفتْ في أحد الحروف فجأةً الحرب العراقية الإيرانيّة.يقول صديقي "باول نيكلسون "من يصدّق أنّ

الاتحاد السوفيتي يتلاشى بمثل هذه السرعة ..يتناثر كندف الثلج .. بل لا أصدِّق أنِّي أغادر الكلية الطبية في السنة الخامسة وأهجر ناتاشا التي تعرفتها منذ السنة الثانية، فأحبط آمال عمي الذي كان متحمسا لتعليمي أكثر من أبي نفسه:

- حقا من كان يتوقع أنه مثل علبة محارم تلعب بمحتوياتها الريح؟

- أنا أخبّك!

- أحبك حاء إنها حاء قولي حاء ..

- هل تتركني حقا؟

أصمت فلا أرى إلاّ الدموع تترقرق في عينيها.

- أخبك!أخبك

أنا لاأعرف مصيري بعد .. من المفترض أن أقضي سنة أخرى .. بعدها أعود إلى العراق طبيبا أعمل في مشفى حكوميٍّ نهارا وبعد الدوام الرسمي في عيادتي الخاصة ثمّ أتزوج ابنة عمي المعلمة إكراما لعمي هذا هو ملخص الحكاية التي كان من المفروض أن تستمر على هذا النحو لولا اندلاع الحرب .. أنا تغيرت .. البصرة .. تغيرت .. موسكو .. ناتاشا كل النساء تغيرن بعد سقوط الاتحاد السوفيتي أنت لم تعد طالبا شرقيا تحبه روسية لتهاجر معه هاربة من سجن كبير يسمى الاتحاد السوفيتي .. علكة ونفط وكابوي .. في كل بيت بئر بترول .. هكذا نحن في خيالهن .. لابد أن ناتاشا التي استطاعت بعد سنة من لقائي بها أن تقول كلمة " أحبك" بطلاقة فلا

تصبح بعدئذٍ جارية لشهريار إنها الآن تفكر بأوروبي يصحبها إلى لندن أو باريس ..

أو ربما لاتفكر بالسفر قط لأن لندن وباريس ونيويورك وواشنطن انتقلت إليها برمشة عين .. ويبدو أني بدأت من حيث انتهى السيد موسولوف مع ذلك سألت نفسي بسذاجة: لِمَ رجع ثانيةً وكان هناك احتمال أن ينفى إلى سيبيريا من قبل محاكم ستالين التي تتهم كلَّ روسيٍّ أسيرٍ بالعمالة والتهاون والإهمال. يقول في رسالته إنه كتب عدة رسائل إلى صديقه "باول" زمن ستالين وخروشوف .. عسكري يعمل في اللاسلكي يبعث برسائل للخارج .. كان بإمكانه أن يطلب اللجوء مثلما فعلت أنا .. يرحل إلى أمريكا أو يبقى في الدنمارك .. يصبح واحدا من أهل هذه القرية لايميزه عنهم شعر ولا سحنة لكنه لوفعل ذلك لما التقينا بعد كل هذه السنين ولما اضطرني إلى أن أصبح " باول نيكلسون"متنازلا في الوقت نفسه عن طيب خاطر عن اسمي السابق فرحا بلحظة الهرب متطاولا على الكوارث التي جرفت في طريقها الأحلام .. لم تكن هي المرة الأولى التي تنازلت فيها عن جنسيتي .. لقد قبلت بجواز سفر مغربي واسم آخر .. لا بأس أن أبدأ من حيث انتهى السيد " موسولوف يوجيني" .. رجوعه من معسكر الأسر إلى الاتحاد السوفيتي وفَّر عليَّ الزمنَ وجعلني أجتاز كوارث شتى .. القتال في لبنان .. الحرب بين إيران والعراق .. سريلانكا يشعلها التاميل .. والجراد اقتحم شمال إفريقيا. في الصومال حرب وجفاف .. الرمال تزحف نحو موريتانيا، ومن قلب إفريقيا تأتي نبؤة

الإيدز وربما نبؤات أخرى كامنة في رحم الزمن .. لجوء .. سياسة .. اقتصاد .. جوع .. قلة هربت تطلب حقا في اللواط، فاعل ومفعول به .. السيد " موسولوف بوجيني" هرب من الحصار مرات ومرات عبر رسالة فأيُّ حقٍّ أطلبه انا؟قد أقول هربت من الحرب فيرد عليَّ مسؤول كبير الحرب ليست مسوِّغا للهرب وطلب اللجوء .. ولعلّني أدعي أن هناك مجاعة .. الجوع نفسه لايرغم العالم على قبول لجوئك .. ولايعني أنِّي شيوعي كوني أدرس في مركز الشيوعية غير أن الاتحاد السوفيتي سقط بعد فراري منه وقبل أن يسلمني الرفيق في موسكو إلى الرفيق في بغداد حيث الحرب الدائرة هناك فإمّا الموت في خندق وإمّا بتهمة الخيانة . أنا الآن يا سيد " نيكلسون " أحتل موقع أسيرك القديم "موسولوف بوجيني " صاحب الرسالة الغريبة سوى أنّ شعره صار أسود وبشرته الشقراء انقلبت من الحرّ وعيناه الزرقاوان أصبحتا بنيتين ..

تحوّل إلى شخص آخر تماما ..

صديقي العزيز موسولوف بوجيني

كانت رسالتك رائعة جدا.قد تعجب أني كتبت لك جوابا بالروسية إذ استعنت بلاجيء يعيش في مدينتنا كان قد درس في موسكو .. لكني بكل سرور أقول لك إن الرسالة فأجاتني .. إنها أشبه بالمحال الذي يتحقق .. معجزة جديدة مثل سقوط جدار برلين .. أسفت جدا لانتقالك من أسرٍ إلى أسرٍ، في النهاية أنت حرٌ .. ربما أطلّت الحرية متأخرةً مع ذلك فهي أفضل من أسرٍ طويلِ الأمد .. أشكرك جدا على

اهتمامك .. آمل أن نتواصل ومن الممكن أن نلتقي يوما ما اطمئن سوف أبعث لك بصورٍ حديثةٍ لي!

أتظن كما أتصور أن الحوادث تنسخ نفسها بين حين وآخر؟

بالتأكيد يمكن ذلك .. بل مجرد خاطرة مرت ببالي .. أستطيع أن أتناسخ بكل يسر بدلا من أن يكتب لك أسير قديم .. أستطيع - مثلما حاولت التلاعب بجواز سفري - أن أكتب رسالة بأية لغة حتى لو كانت لغة الشياطين. الأسرى واللاجؤون يمكن أن ينشطروا مثلَ البكتريا أسيرٌ سياسيٌ يصبح لاجئاً لصَّا وآخر مفكِرٌ يتحول إلى مزور جوازات من الدرجة الأولى .لو تأمّلَ " موسولوف" بهذا الأمر قليلاً قبل أربعين عاما لما بقي أسيراً حتى انهيار الإتحاد السوفيتي، ولسبقني بسنوات حتى أعجز عن اللقاء به .. ربما فوجئت حين حضر إليّ السيد" نيكولسون"ذلك الشيخ السبعيني النحيف القامة الذي بمساعدته تمكنت من إيجار بيت صغير، وحين زرته في بيته أطلعت على مدى البحبوحة التي ينعم بها.

كان يعيش في بيته الفخم الصغير الهاديء وحده أما ابنته ليزبث التي انفصلت عن زوجها الدنماركي قبل خمس سنوات فقد انفردت في شقة وسط البلد .كنت أقضي معظم الوقت إما في الذهاب إلى المدرسة أو مشاهدة التلفزيون .بعض الأوقات أمنحُ نفسي وقتا للاهتمام بالدجاج الذي بدأت أرَبِّيهِ في الحديقة الصغيرة وكثيرا ماكان السيد " باول نيكلسون" يتصل بي لنقضي الوقت إمّا في بيته أو الغابة نلتقط الفطر.لم أسمعه يشكو يوما من علّة على الرغم من إصابته بقصور

فـي الكلى.كـان يبـدو أمـامي متفـائلا، وربمـا لاحـظ ذلـك عنـه الجنـود الأسرى قبل أكثر من أربعين عاما، قلت كأني أمام حكاية غريبة؟

- هل كان بإمكانك الامتناع!

- عماذا؟

- عن أن تجاريهم أو تقبل البقاء معهم في الإسطبل؟

- هذا ليس حلا ستموت الحيوانات المسكينة ثم في ذلك الوقت من المحال أن تقول للألمان لا . إنهم منتصرون وهم الأقوى والأفضل .. الجنس الآري .. صحيح أنهم ينظرون إلينا نحن الإسكندنافيين بصفتنا مثلهم آريين لكنهم يعتدّون بالعنصر الألماني قبل كل شيء .. " وتوقف لحظات ثم واصل"كنت أشغل وظيفة المسؤول المباشر عن الخيول ذات يوم أصحبك إلى هناك لترى ثلاثة مرابط: مربط لخيول الرياضة والألعاب ومربط للتدريب وآخر لحالات المرض وحين جاء القائد الألمانيّ بأكثر من مئتي أسير أفرغت لهم مربط الطواريء. كانوا في حالة يرثى لها إلى درجةٍ تثير الشفقة تيقنوا تماما أن الألمان يمكن أن يعدموهم في ساعةٍ ما وفق مزاج الضابط المسؤول عن المعسكر .. رحت أواسيهم .. في غفلةٍ من الحرس .. أعاملهم بلطفٍ وأقدِّم لمن يدخن منهم بعض السجائر وأحيانا أنفخ فيهم أملاً ما بالنجاة من خلال بعض الحركات والإشارات أو الكلمات التي يفهمونها!

- لنفرض أنّك أبديت تفاؤلاً أمام أسير فأوحيت له بالنجاة ثمّ بعد ساعة أو يوم مات أو أعدم!

فرد عليّ قائلا: إنّه يؤدي واجبه ولا يمكن أن يكون منوِّما مغناطيسيا قط، أمّا" ليزبث" فذكرت لي أنّه كان يفرط في تفاؤله إلى الحدّ الذي أخفى آلامه عن نفسه قبل الموت، وهو الشيء الذي لمسته عنه حتى خيّل إليّ أنّه كان يكبت معاناته بصورة ضحكاتٍ وابتساماتٍ أو قهقهاتٍ من أن أجل ألا تنقلب إلى صراخٍ حادٍ، ومن باب تفاؤله الذي جعلني أواظب على دراسة اللغة ماذكره لي في بداية لقائنا من إعجابه بي لأنني أتكلّم ثلاث لغات لكنّ ذلك لايغنيني من شيء مالم أعرف لغة أهل البلد كلُّ ما يحمله أيُّ لاجيءٍ من ثقافةٍ وشهاداتٍ عليا مجرد ورق مالم يحصل على تعليمه في هذا البلد حتى لوكنت أنهيت الطب في موسكو .. هنا الناس ينظرون بعين واحدة إلى الطبيب واللاجيء والمحامي واللص وابن الشارع ..

كلّنا لاجؤون. ..

اقترح علي أن أبدأ من جديد .. وكان يصحِّح لي بعض الحروف والاصوات ويقارن بين مخارجها وأصوات اللغات الأخرى في الفرنسية والالمانية والإنكليزية والبولونيّة حيث ذلّل لي كلّ الصعوبات .

وفي البيت دفعني إلى أن استغلّ الحديقة الخلفيّة في زراعة بعض الورود وبناء قنٍّ يشبه نموذجا مصغرا لمأوى دجاج في منزله، وتلك هي الرغبة التي راودتني حالما استطلعت البيت مع المشرفة بحضوره أولَّ مرة ووافقت على السكن فيه.، والحق إنّه لم يحبّذ الجلوس في البيت أو التردد على المقاهي شأن المتقاعدين الآخرين،

فمن مطالعة الصحف إلى مراعاة الدجاج، أو القيام بزيارة في بعض الأحيان الى الإسطبل وتسجيل مذكراته، إلى مراقبة الفصول لمعرفة مايمكن عمله في كلّ فصل ..كنت مشغولا بإطعام الدجاجات حين زارني، واقترح أن نخرج لنتجول في الغابة بحثا عن الفطر.كان يحمل كتاباً عن الفطريات يريني صورها المختلفة وأشكالها وينبهني إلى خطورة بعضها، كنت أنبش بعينيّ عن الفطر وحين أجد بعضا أشير إليه، فيحذرني منه، أو يثني عليّ ..لحظتها كنت أقول إني سمعت في موسكو عن حوادثِ موتٍ سببها الفطر لكنّ الفطر في بلادنا إما جميل المظهر رائع الشكل، يقفع الأرض فتبدو له مثل القبعة نستاف رائحته فنسارع في التهامه، كأننا ننقض على حلوى طيبة ذات رائحة عطرة أو هو قبيح المنظر مثل وجه مجدور أصابته البثور شيطاني .. نتن يخيفنا شكله أظن لقبحه سميناه فطر الكلاب، فلانفكر بالاقتراب منه، وحين لفحت أنفي رائحة الرطوبة، وخامرني سعال كثيف، قلت:

- كان عليّ أن أحمل دواء الرّبو.

سألني باهتمام:

- هل كنت تعاني من الربو منذ الطفولة.

- ربما غير أني .. في موسكو عانيت منه بسبب البرد القارس.

وأكّد لي بما يشبه التحذير:

- دائما أفضل النزهة في الطبيعة، فغدا إذ ترافقني أحمل الدواء معك ثم أردف بعد برهة:

أنظر " استل علبة دواء من جيبه" هذا مسكن لآلام الكلى. أحمله دائما على الرغم من أنه مجرد مسكن خشية من أن تداهمني الآلام فجأة!

- حصاة أم حالة غير ذلك؟

عجز في اليمنى واليسرى على النصف!

- هل خطر في بالك ان تزرع كلى؟

- أبدا قط!

- أذا كان القانون الدنماركي لايسمح تستطيع السفر إلى الخارج لديك لبنان أو الهند هناك الكلية بعشرة آلاف دولار .. لست متأكدا لكني أقرأ وأسمع ليس إلا!

- أعلم ذلك أعرف أن الدم يباع في لبنان والكلى في الهند "نم وجهه عن انشراح وقشعريرة" سوى أنّي لست متحمسا للأمر!

بشيء من التردد:

- هل تنظر للأمر من الناحية الدينية!

Religion-؟ لا قطعاً أنا بعيد عن الدين.

- بماذا تفكر إذاً؟

- بصراحة .. لا أرغب في دخول جسمٍ غريب داخل جسدي!

شعور .. إحساس لاأفهمه .. لعلها مزاوجة بين الطيبة والتسامح والعنصرية .. يتبنى لاجئاً صديقاً ولايقبل دخول عضو في جسده ليرتاح من آلام لاتطاق وحفنة أدوية يدمن عليها .. في حين فهمت صديقي " موسولوف" منذ اللحظة الأولى قبل أن أراه منذ كنت صغيراً ألمح الحروف على البواخر الرابضة في شط العرب ولاأفهمها!

عالم غريبٌ ترى مالاتفهمه فتفهمه وترى ماتفهمه فلاتفهمه .. ترى أشياء فتغيب عنك وتسمع أخرى فتدركها ربما هي خصوصية إسكندنافيا التي ميَّزَتها عن أوروبا وأمريكا وكلِّ بلدان العالم!

وبعد لحظات صمت قطعتها حشرجة وصفير تتابعا من صدري:

- هل نعود!

- لا أبدا أنا بخير!

وقال بعد فترة صمت:

- إذاً بعد أن تتعرف المجتمع أكثر وتفهم اللغة لاتفكّر أن تعمل في أيّ مصنع إختر عملا مكتبيا اختص في الحاسوب إذ بدأت تجارته تروج أو يمكنك أن تعمل في رعاية المعَوَّقين أو المحلات التجاريّة أيَّ شغل غير المصانع التي ينهك العمل فيها رئتيكَ.

وإذ راودتني موسكو من جديد والسنة الباقية التي تركتها كما لو أنها مسمار جحا عرضت عليه فكرة بدت أشبه بالعبث:

- مارأيك لو أني أسافر إلى موسكو بعد أن أحصل على وثيقة سفر دنماركية فأقضي سنة هناك أكمل فيها دراستي الطبية!

فأطرق برهة وتطلع إليَّ باستغراب:

- لاأعتقد أنها فكرة صائبة!ستنسى ماتعلمته هنا وحين تعود تجابه بأن شهادتك مجرد ورق عندئذ تبدأ من جديد إلاّ إذا كنت تروم العمل في الخليج!

- لاأظنني أستطيع ذلك!

- عليك أن تنسى الموضوع ولاتطرحه عليَّ مرةً أخرى فلا فائدةَ من الخوضِ فيه .. أقنِع نفسك أنَّك تعيش هنا وتبني حياتك الجديدة في الدنمارك!

وتراقصت أمام عينيّ وأنا أتابع حديثه باهتمام بقعة داكنة من كتل فطر كثيرة كادت تغطيها أوراق صفراء، وجدته ينحني ويلتقط تلك الأشكال البنيّة.قال:

- هنا الأنواع كثيرة وستتعود عليها وتعرف السامّ من الصالح للطعام، ثمّ قرّبها من عينيّ:هذا النوع لذيذ اسمه كارل يوهان أنظر لقبعته، هو المفضّل لديّ، يمكن أن تطبخه بالطحين والحليب، فتحصل على حساء لذيذ.

ذلك اليوم التقطنا فطراً كثيراً أصفرَ وبنياً، وحين عدت إلى المنزل،، عملت منه حساء خفَّفَ دِفئُه من ضيق نَفَسي، وبمرور الأيام توطَّدت علاقتي مع " باول" بحكم الثقافة فهو موسوعة لغات، وقرَّبنا المرض

أكثر، كلانا يعاني من مشاكل صحية هو من مرض الكلى الذي يلتهم بسببه أكثر من عشرين حبة في اليوم، ويكرع الماء أغلب الأوقات، وأنا أعاني من ربو حاد لايعفيني من تناول الدواء أيّ يوم.في الوقت نفسه كنت أنزعج من بعض الحوادث التي قد تبدو صغيرة لكنها تزيد من انفعالي ..ذات مرّةٍ كنت في المدرسة .. وحين عدتُ عصرا وجدت أنّ دجاجتين من السبع عندي في القنّ اختفتا.ثمّ اختفت اثنتان أخريان، السيد باول جاء وفحص المكان.

قال: علينا أن نضع ثلاثة احتمالات أما أن يكون ثعلب أو تكون الدجاجات فرت وربّما أحد العبثيين سرقها، في هذه الحالة ذهب الظنُّ إلى نفرٍ من أهلِ القرية العنصريين الرافضين لوجود الغرباء، وحينما تفحصنا المكان جيدا وجدنا أنّ من الصعوبة على دجاجة أن تنطّ من السور الخشبي فافترضت أن يكون ثعلب من تلك الثعالب الكثيرة السائبة في الحقول ثقب الجدار ولم يترك أثرا .. كأن باول فكر في شيء ما، خاطر انتابه فاستأذن وخرج غير أنه رجع بعد أقل من ساعة، قال إنه سأل الجيران فيما إذا لمحوا غرباء يمرون من الطريق فأخبرته صاحبة البيت المحاذي لمنزلي أنها كانت تطل مصادفة من نافذة الصالة فلمحت شابين لم يكونا أجنبيين، أحدهما نطّ بخفة كما لو أنه ثعلب ماهرمن السياج إلى قن الدجاج فاختطف واحدة . في تلك اللحظة تغيرت ملامحي .. وتساءلت بصوت خافت: ماذا لو اقتحم لص علي المنزل في الليل.؟ إنها الوحدة والظلام .. ربما سرحتُ لحظة مع أمان عشته سنوات في موسكو ثم انتبهت إليه، والأحرى بي

ألا ألوم أحدا مادمت لم أكن لأتدخل – شأن حشد العابرين- إذا رأيتُ صريعا من الفودكا مطروحا بين أرجل على الرصيف:

- أعذرها لو لم تكن تعرفني لكن مادامت لمحتهما، وتعرف جيدا أني جارها فلمَ لمْ تخبرني أو تتصل بالشرطة؟

- هنالك بعض الناس يرغبون عن أن يزجوا بأنفسهم في مشاكل هم في غنى عنها وإن كانت تشمل الجيران " ابتسم ليبعث الثقة فيّ"جارتك موظفة سابقة في السكك الحديد وتفضل ألا تتدخل في قضايا لاتخصها.

كانت هناك ملامح قلق مازالت ترتسم على وجهي كما لو أن ذهني انصرف إلى أمان شعرت به يوم كنت طالبا في موسكو:

مادام الأمر كذلك فالأفضل أن أزيل قن الدجاج.

ارتسمت ابتسامة على وجهه وردَّ معترضاً:

لا أبدا ليسرق اللص دجاجة بدل من أن يقتحم البيت.

ما الذي كان يحدث لو دخل وأنا في البيت؟

ياصديقي العزيز، هؤلاء لم يتعمدوا سرقة بيتك فقط، أي بيت يبدو خاليا يصبح هدفا لهم عبثيون أكثر مما هم لصوص، فدع عنك القلق وانس الموضوع .

في اليوم نفسه اقترح عليَّ أن نغادر المنزل إلى مكان رائع كان هدفه أن يخفف عنيّ، من خلال ذاكرته التي استوعبت قبل سنين صورا

لأسرى لايغيبون عن باله .. حين وصلنا تبينت المكان اسطبلا للخيول. الموضع الذي كان يعمل فيه خلال الأربعينيات .. سنوات طويلة .. 1940 .. 1988 .بناء قديم .. يطل على رصيف مفتوح تقابله مزرعة واسعة تمتد من نهاية ساقية نحيفة إلى تلٍ بعيدٍ وأجمةٍ كثيفةٍ خُيِّل إليَّ أنها تضمُّ خليطاً من الزهرِ والتوتِ البريِّ، كاد ت لفحة برد تشلُّ المشهد بكامله لولا أن خَطَتْ ثلاث يمامات على السياج وتحركت من الاجمة عند الساقية شواهين هابطة من شجر الصنوبر إلى العشب فأزاحت عن المنظر الصامت بعضاً من رتابته، وحالما دلفنا من البوابة الواسعة واجهَنا مربطٌ طويلٌ يضم بضعة خيول وأفراس . وعلى طرف آخر استرخت فرسٌ حاملُ تطلعت إلينا وهي تقضم شيئا ما .. دولٌ هلكتْ ونَشأَتْ .. حروب كثيرة .. كوارث .. زلازل .. والوضع في هذا المكان باقٍ كما هو، وعند اليمين لفتت نظري لوحة في المدخل تزدهي بصورٍ أربعٍ قديمةٍ لمديري الأسطبل .. كانت صورته الثالثة على اليمين جنب صورة مشوشة غير واضحة الملامح لمدير سبقه .. "باول نيكلسون 1950 - 1970بدا وسيما أنيقا كأنه أحد ممثلي الأفلام الصامتة. أظنّ أنّه حدّثني من قبل عن هواية ركوب الخيل وسياستها وخبرته في سلوكها ومزاجها حتّى إحالته على التقاعد لكن صورته حدثتني عنه بانطباع آخر:

- أظنك كنت تعمل في الإسطبل قبل هذا التاريخ.

ولعله التفت لالتباسي:

- قبل عام 1950 لم أكن المدير بل مسؤول الإسطبل أعتني بالخيول وغذائها وأراقب سلوكها وفترات تزاوجها وما يعتريها من غضب ونشاط أو فتور ...

- يبدو أنه قديم!

- أووه شيد عام 1860 لكن للأسف كان التصوير الشمسي في ذلك الوقت في بدايته فلم نعثر على صور لمدرائه السابقين!

دفعني الفضول فسألته:

- ماذا عن السيدة "ليزبث " هل ورثت عنك الاهتمام بالخيل؟

- عندما كانت صغيرة علمتها ركوب الخيل غير أنها لم ترغب في العمل بهذا الحقل كان لها اهتمامات اخرى في الاقتصاد والمحاسبة والعمل في البنوك!

كنا نقترب من سياج المربط الرئيس والفواصل التي تحجز بين خيول تباينت أحجامها وألوانها، فقلت ببعض الفضول:

- مارأيك بالحصان العربي "وأضفت ممازحا ":أرجو ألاّ تقول ساخرا إنّ عقله صغير كصاحبه.

اعترضتني قسماته الجديّة:

- أنا لاأمزح مع الخيول، ولاأسخر منها، لكن يجب ألاّ نغضب من الحقيقة.

- ماذا هل هي دون المستوى؟

- الحصان العربيّ أصيل قوي صبور ذكي سريع، لكنّ عيبه الوحيد يكمن في عموده الفقريّ.فقرات الظهر أقل من فقرات الظهر في الحصان الأوروبيّ الذي بهذه الميزة يقدر على قفز الموانع.

ربّما لم أفهم أو عجزت عن أن أقنع نفسي بما قاله.أكّد أن طبيبا من إنكلترا في الإمارات حاول مزاوجة حيامن وبويضات خيول أوروبية وعربية .

تحدث مع أحد العمال وكان هناك من غرفة جانبية يطلع شاب رشيق لتحيته تكلم الاثنان معه بلهجة أدركتُ منها أن موظفي الأسطبل وعماله مازالوا يكنون له كل تقدير. فتساءلت باهتمام:

- هل نجحت التجربة؟

فأجاب متمهلا:

- الحقيقة انصرفت عن أن أتابع الموضوع لأن الأطباء أنفسهم وأصحاب التجارب لايعلنون عن تجاربهم إلا بعد التأكد من نجاحها وقد يتطلب ذلك وقتا!

- وهل تتوقع نجاحها؟

- لست بطبيبٍ بيطريٍّ مع ذلك أرفض إجراء مثل هذه التجارب التي تمس الجينات سواء على النبات أم الحيوان.

- لكن بعضها لابدّ أن ينفع البشر في علاج كثير من الأمراض.

فهز كتفيه:

- لا ألغي كل التجارب بل الكثير منها يؤثر فينا ثمار الفواكه الطبيعية تجدها مختلفة الأحجام ونحن نأكل ثمارا الآن محسنة ذات حجم واحد لعل ذلك يؤثر فينا ولك أيضا عبرة في اللحوم!

قلت ملاطفا وقصدي أن أغير مجرى الحديث:

- العمل مع الخيل رائع جدا فهي علامة فأل حسن!

فارتسمت على وجهه علامة ما .. بدا مقتنعا أو بين بين وأضاف:

- غالب الأحيان نعم، وفي بعض الأحيان تقود الخيل إلى الشر .. عندنا في التراث الإسكندنافي عربة الموتى يجرها حصان قبيح يبعث على الإنزعاج ولا أقول التطير لأن المجتمعات هنا لم تعد تؤمن بفكرة التطير والكابوس نفسه night mare هو مهرة الليل التي تجثم على الصدر!

وإذ تحوَّل عن صالة الخيول أشار إلى صالة أخرى تمتد باتجاه المزرعة الخلفية للإسطبل قال:

- هنا زج الألمان بأسراهم .. إنَّك ترى أنهَّا تختلفُ عن بقية الإسطبل كأنهَّا قلعة إذ لم تكن كذلك قبل الاحتلال لقد حَصّنوها من أجل ألا يفكر الأسرى بالهرب.

- وماذا عنك هل بقيت في عملك؟

طبعا بقيت مع ثلاثة عمال نعتني بالخيول نحن موظفون نأتي إلى العمل وهناك حارسان ليليان . كنا نتحاشى الألمان وكنت أغتنم الكثير

مـن الفـرص فأحـدِّث الأسـرى .. بعضـهم يـتكلم الإنكليزيـة .. بلـدان مختلفة ولغات متباينـة لايفهم أي منهم لغـة الآخر يتحدثون بالأصـابع والعيـون ويثرثـرون فـيَفهم أيٌّ مـنهم الآخـر كـل يثرثـر بلغتـه فيقطـب جبين وتبتسم شفاه .. ويعبس وجه .. وتشرق عيون .. أحيانا أجلب لهم بعض الطعام والدخان دون مقابل وفي بعض الحـالات يـأمر الحـارس الألمـاني عامـل التنظيـف الـدنماركي بـالتوقف ويـزجّ بالأسـرى ليـؤدوا عمله فكنت أتعامل معهم بلطف بل أعدُّ نفسـي أسيراً مثلَهم إلـى درجـة أن الكثير من الأسرى طلبوا مني عنواني!

في هذه اللحظة بالذات لم أكن أعرفك عزيـزي موسـولوف، وإن كنـتُ واقفـا أمـام زنزانتـك، وإن كنـتُ رأيـتُ سـفنا بَعَثْتَهـا لـي إلـى البصـرة وحروفا غريبة بهرني شكلها حينذاك .. أنت واحد من مئـات الأسرى زج النازيون بهم في صـالة حصَّنوها بالإسمنت .. هذا الإسطبل الـذي بقي منذ عـام 1860 ينعم بالإلفـة مـع الخيل استقبل ذات يوم رائحتك الغريبــة مثلمــا يســتوعب الآن رائحتــي.لم تكــن ولا هــؤلاء الغربــاء تحملون رائحة الخيول .. وهناك من فقد صـبره وزعق بوجـه الجنـدي الألماني .. سبَّ .. وشتمَ ظل يهتف على أمل أن يتغنى بهتافه الأسرى فـي الحظيـرة فـي حـين راح الآخـرون يلـوذون بالصـمت مـن الخـوف عندئذٍ نطق الرصاص من دون رحمة على صدره كالمطر أمـام أعين السجناء عبرة للآخرين .. ليبق كل أسير متشبثا بالصـمت .. ثـم أطـل الصـباح وكـأنَّ شـيئاً لـم يكـن حتـى الأسـرى أنفسـهم لـم يعرفـوه أو يتذكروا اسمه .. الروس يظنونـه جيكيـا هتـف باللغـة الجيكيـة، والجيك

يقولـون إنَّـه بولنـدي، والبولنـديون يدَّعونـه روسـياً .. كـلٌ سـمع كلامـا غريبا يختلف عن لسانه. من المحتمل جدا أن الجنديّ الألماني حلم وهو صاح بهتاف ما وزعيق فأطلق النار على أقرب أسيرٍ إليه .. ، نحن في بيوتنا نائمون ولاشاهدَ يأتي به الصباح سوى بقعٍ داكنةٍ باهتةٍ لاحت على الحائط من نثار دم لذلك أبديت أسفي أكثر من السيد " باول" حين قلت لكَ إنِّي لم أكن أعرفك. باول نفسه نسيكم .. نسي وجوهكم، تجردت ذاكرته عن اسمك كما تخلع فراشة ثوبها القديم لتلبس جناحين زاهيين .. كان كابوسا جثم على صدر البلد مدة وانحسر .. أما أنا فعليَّ أن أؤدِّيَ دورك بالضبط، فقد بدأتُ من حيث انتهيت أنت:

والدي العزيز:

من حسن حظي أني حالما انتهيت من دراستي في جامعة موسكو وقَّعتُ عقد عملٍ في الدنمارك .. طبيب لمشفى صغير .. العيش هنا في جنوب مدينة " هيذر سليو" هاديء ورتيب .. الحياة جميلة غير أنها لاتخلو من منغصات .. هذا الأسبوع فقدت صديقاً دنماركيا . مدير إسطبل متقاعد .. مروض خيول .. هو أوّل صديق لي في الدنمارك!

وأوّل من يعاملني كواحدٍ من أفراد عائلته ..

تخيّلت كم كانت الحياة تبدو صعبة من دونه.هناك مازلت أجهل الكثير عن البلد، وربّما كنت أيضا أغفل مايجري في العالم.كان يزورني في

المنـزل، فيسـاعدني فـي حـلّ واجبـات اللغـة، ثـمّ نخـرج، إلـى السـينما، أونبقى في المنزل عنـدي، نسـهر معـا ونخـرج فـي نزهـات وقد نـذهب إلى بيته فنتابع كلّ مساء جميع الأحداث الكبيرة ..

لاتتأثر تلك هي الحياة!

تابع للتهويمة الأولى

" كـان علـى صـاحبنا البـدوي أن يرحـل عـن هـؤلاء الأقـوام الـذين لـم يراعوا حق الجيرة وحق الضيافة ليحل وسط أنـاس يعاملونـه معاملـة طيبة فيشعر معهم بالأمان"

تابع للتهويمة الثانية

" يقال إن العاشق جلس يبكـي عنـد القبـر المزعـوم أيامـا ولـيـالـي حتـى مات"

لم أتوقع أن تجري الأمور بتلك السرعة المذهلة التي جعلتني أظن أن صديقي مات وفي الحقيقة مازال قلبه ينبض بل أدركت أن شيئاً ما لابد أن يقع لكن لاأدري كيف اختصرت الأحداث نفسها لتوفر عليَّ الوقت، فأنا حين أكتب إلى أهلي رسالة أكتب في الوقت نفسه رسالة إلى موسولوف الذي غيَّرني خطابه القديم الجديد من لاجيء إلى طبيب ومن لاجيء فيما بعد إلى مدير إسطبل متقاعد ثم أعادني ثانية إلى مهنة الطب . صديقي العزيز موسولوف لاتستغرب فقد كان بيت " باول نيكلسون" أوّل بيت دنماركي أدخله، لا أعني أنه أصبح يطاردني مثل ظلي فأنا مازلت بحاجة إليه .. فهو - وإن لم يكن أوَّلَ من صحبني إلى البحر لأرى محيطين يتصارعان مثل الأفاعي، كان أول من صحبني إلى الغابة وجعلني أروض فطرا سمعت عنه يقتل الناس في روسيا وليسَ من باب المصادفة أن أذهب معه إلى السينما للمرة الأولى ذاكرتك قوية على الرغم من عمرك الحافل المديد يمكن أن تسجل بدقة كلّ الأمور التي تعنيني مادمت سبقتني إلى الدنمارك ورحلت عنها قبل أن أصل إليها .. فمابين سقوط موسكو أي رسالتك التي اختصرت السنين ووقت السينما تمنيت أن يتزحزح الزمن قليلا ولو حدث هذا ربما لكنت في موسكو أواصل دراستي لكن التمثيل تأخَّر عن الواقع بسنة كاملة حتى انفتحت روسيا إلى الغرب والعالم .. التمس لي عذرا لأنني قد أكرر هذه العبارة أكثر من مرة أمامك ..

عصر ذلك اليوم زارني في منزلي ليخبرني أن هناك شريطا حصل على جائزة أوسكار يُعْرَضُ هذه الايام في سينما القرية الصغيرة وإن مصلحتي تقتضي أن اسمع الحديث وأتابع الترجمة فذلك يجعلني اقترب من اللغة خطوة أخرى ..

اقتنعت أن الشريطَ يستحقُّ المشاهدة كونه حظيَ بتلك الجائزةِ الشهيرة!

راحت عيناي تلتقطان الكلمات .. وتتابعان الذئاب وهي ترقص مع البطل .. الذئب يرقص في حين يروح البشر يقتتلون .. ضحايا بالعشرات .. أسرى .. هنود حمر .. بيض .. سهام .. بنادق .. مسدسات .. مثلما هو الحال على الأرض .. والذئب يرقص .. ملاك ذو مخالب لايبتغي إلا قطعة لحم صغيرة .. لايروم أن ينتحر مثلما فعل أحد ممثلي الشريط .. لاشك إني سعيد بنجاتي .. غير أن هناك جرحا ما في عمقي .. موسكو سقطت عام 1990 والذئاب رقصت عام 1991 رائع جدا أن تجري الأمور بهذه السرعة وإلا كيف يتحول الإنسان إلى وحش والوحش إلى حيوان وديع مسالم .. في تلك اللحظة نسيت البجعة السوداء والنبوءة .. كان الذئب يرقص أمامي .. رائحة الدم دلّته إلى الطريق فوقف البطل يلوح له بعظم فبدأ معه بالرقص .. العظمة تدور والذئب يرقص .. ومثلما جذبته رائحة الدم جعلتني صورة الدنمارك أرحل إليها .. رائحة من نوع آخر .. أمان ودفء .. لكن ماذا يضر لو سقطت موسكو عام 1988 ثم يأتي الشريط السينمائي بعد عام .. عام واحد فقط لا أروم أكثر سأدع الزمن وشأنه

فالعام الموعود كان بمقدوره أن يقلب حياتي رأسا على عقب ..عندها أكون أنهيت دراستي .. السنوات الست .. وربما اقترنت بحورية ..وصحبتها معي إلى أي مكان أعمل فيه .. ولعلك تجدني أصبح غير ذلك الذئب الهاديء الذي شدني وهو يرقص ذات اليمين وذات الشمال باتجاه قطعة من اللحم تترنح أمامه!

في طريق العودة سألت " باول" سؤالا مفاجئا دفعتني إليه رغبة للتحرر من عامٍ أنهى تأخّره أيَّ طموح لي:

هل هناك من ذئاب في الدنمارك؟

قلت ذلك كأنّما الدنمارك ذات رائحة غريبة دفعني إليها إحساس ذئب فقد الأمان فهز رأسه باهتمام واسترسل في الحديث:

هناك غابة صغيرة شمال شرق الدنمارك آوت إليها حفنة من الذئاب هربا من البشر الذين انتشروا في كل مكان .. في ذلك المكان من حسن الحظ لم يخرِّب الناس الطبيعة لكن الحضارة وصلت إلى أعماق السهول والغابات والبلد صغير المساحة .. حبّة على خارطة الأرض .. تخيل مفاعل السويد النووي قرب كوبنهاغن في مالمو لو انفجر مثلما حدث لتشيرنوبل لغطى الموت كل تلك المساحة الصغيرة!

ماذا أهو الموت يتبعني أين حللت .. أم حدث أقل سوءا؟ الذئاب لا تتصارع مع الذئاب ولا مع البشر .. الدنمارك حبة صغيرة في خارطة العالم والذئاب مخلصة أحادية الزواج .. الذكر لايرغب في أنثى أخرى " مونو كامي" يقولها وهو يغمض إحدى عينيه سخرية أم

شفقة .. لا أدري .. فأقطع عليه استرساله وفي ذهني خاطرة شاردة تتردد بين ذئاب تحتمي في غابة كثيفة شمال شرق الدنمارك وأمواج بحرينِ تتصارع مثل الثعابين ثم انفجار نووي أو نار خافتة تتلوى كحيّةٍ مسالمة وديعة استرخى لدفئها كتفاي:

- هل تتوقع ذلك؟

- السويد دولة متقدمة لاتعاني من بيروقراطية وروتين مثل الاتحاد السوفيتي أنا متأكد من أنهم يراقبون مفاعلهم فيديمون صيانته كل عام مع ذلك فإن بعض الناس لا يقتنعون يظنون الإدامة والمراقبة لاتنفعان إذا حدث خلل تقني ..

صمت فترة ثم عاد إلى حكاية الذئاب التي لاأعرف عنها أيَّ خبرٍ من قبلُ سواء مايخص الغابة الصغيرة المزعومة في الشمال أم علاقة ذكورها بالإناث ولاأدري أن كانت واقعا أم خيالاً توهمه ليفتح لي نافذة من أمل:

- لكن الذئاب تعرف كيف تحمي ذاتها .. لم يكن أمامها من ملجأ سوى أن تختفي عند النهار في تلك الغابة فلا تخرج إلا ليلا تطارد فرائسها.

صديقي باول يرى خيالا يحولّه إلى واقع يحلم بذئاب حشرت نفسها في غابة صغيرة وأنا أرى حقيقة فأحوّلها خيالا، ليكن تلك هي الحياة، فأقول كمن يسخر من دون أن أعي وقد لاح في ذهني خيط رفيع شدني إلى بجعة سوداء:

- يكاد الذئب في هذه الحالة يتحول إلى بوم ينام نهارا وينتفض ليلا أليس كذلك؟

لم يلتفت إلى تعقيبي كأنه لم يرق له وأعاد الجملة ثانية وهو يهز رأسه بثقة:

- إنها تعرف جيدا كيف تحافظ على ذاتها!

لذنا بالصمت قليلا لأجدني أسأله سؤلا من دون تردد ظنتته مفاجئا:

- باول هل رأيت بجعة سوداء؟

- ماذا؟

هل يلتفت ساخراً، أم ينفجر ضاحكا بل قطب جبينه لحظة وسرعان ما عاد إلى طبعه السابق.

- هل رأيتها؟

- أظنّ رأيتها في روسيا.

فقال بهدوء كمن يقتنع بحقيقة ماثلة أمام عينيه:

- كل شيء جائز .. كل شيء محتمل مادام الإنسان مارس تجربة الجينات والتلاعب بها لن أستغرب قط إذا علمت أني قرأت في الستينيات أن الروس نجحوا في زراعة قطن أحمر قطن ملون فلم لا يتلاعبون بأيّ لون!

لم يمرَّ على ذهابنا إلى السينما سوى بضعة أيام حتى زارني خلال عطلة نهاية الأسبوع التالية في المنزل .. كنت أشعر ببعض الضجر

إذ أنهيت دراسة اللغة ويلزمني البحث عن فرصة عمل،، لقد صحبني إلى كل المعالم المعروفة في المقاطعة بسيارته الخاصة كأنه يخشى من أن أضيع من بين يديه .. كان دائما هو الذي يقترح الأماكن التي نذهب إليها فلم يبقَ من معلمٍ لم يدلنَّي عليه .. كان يكره فقط كرة القدم لعبتي المفضّلة .. حين يرى جنون الجمهور وحوادث الشغب يذكّرني أننا يجب ألاّ نضع عقولنا في أقدامنا أو نتابع بعقولنا أحذية غيرنا .. من هم هؤلاء بلاتيني .. شوماخر .. بيليه .. شوماخر ضايق بلاتيني في كأس العالم ثم تصالحا .. طظ .. لاعب نادي بايرن طلق زوجته .. طظ .. هدف الأرجنتين مشكوك فيه ..أناس جعلوا عقول الآخرين ترتبط بأحذيتهم .. فجأة مرّ خاطر ذكّرني بموسكو.كنت رأيت الكاتدرائيات الضخمة والكنائس فدخلتها وحدي مرات وأحيانا مع ناتاشا وزرت الكثير منها مبهورا بالتاريخ والفنّ وأصوات المنشدين، وقد قلت للسيد باول كما أوحى إليّ خاطري المحشو كعالمنا بالمفاجآت:

- ألا تحبّ أن نذهب إلى الكنيسة؟

- أووه: religion

- هل عندك اعتراض؟

- إذا أحببت اصطحبتك إلى الباب.

- ولم لاتأتي معي؟

- لاتـنس أننـا صـديقان لكـنّ مهمتـي منـذ البدايـة أن أسـاعدك علـى الاختلاط في المجتمع والإندماج والبحث عن عمل ..

ها أنا اكتشف مجالا آخر غير كرة القدم التي يسخر منها، موضوع لا يحبه ولا يرغب الخوض الخوض فيه قط .. سارعت إلى مقاطعته:

الذهاب إلى الكنيسة احتكاك بالمجتمع واندماج أليس كذلك؟

- لا .. أنـت تعـرف .. موضـوع الـدين حسـاس للغايـة والأفضـل ألاّ أطرح عليك قضية تخص العقيدة والدين هذه المسألة أكدها لنا مكتب اللاجئين نفسه ومكتب البلدية.

- لكن ماذا عنك أنت؟

قال بتهكم:

- الكنائس ياعزيزي هنا في الدنمارك سوف تتحوّل إلى متاحف!

- قصدك المجتمع ملحد؟

- لا..لا يصحّ أن نقول مجتمع ملحد بل لادينـي! وأضـاف جادا" أنـا ابتعدت عن الكنيسة منذ زمن طويل لأني اكتشفت زيف الدين.

- هناك معانٍ كثيرةٌ غير مزيفة في الدين.

- يبدو أنّ المزيف أكثر.

- هل لديك دليل؟

- ما الفائدة أن تذهب اليوم فتسمع كلاما يلقيه القس ثمّ بعد خمسمائة عام يطالعك قس باعتراف جديد يقول فيه إنّ الأرض تدور حول الشمس ومحاكم التفتيش كانت خاطئة اقترفت جرائم بشعة وها هو البابا يعتذر لليهود فيبرؤهم من جريمة قتل المسيح، أما عنّي أنا فلعلني أذهب الساعة معك وبعد مائة عام أو ألف يعلن عن خطأ ما.

- يبدو أن الخطأ يتأتى دائما ممن فسروا الدين أو رجال الدين!

- أتريد أدلة أخرى غير التأويل ورجال الدين؟

وواصل دون أن ينتظر تعليقي:

- في الهند يموت الناس من الجوع لكنهم يتركون البقر يمرح في الشوارع، تخيّل لو اتبعنا تعاليم موسى في تحريم الخنزير ماذا كان يحدث هل ننتظر حتى تلد البقر والنعاج بعد فترات طويلة مواليد محدودة على النقيض من الخنزير سريع التكاثر في العدد والمدّة أم ترانا نعيش أزمة لحوم، ثم هل يوافق أهل سيبريا الإسلام في تحريمه الخمر التي يتدفؤون بها ثم الدين نفسه من جانب آخر أثار حروب المائة عام بين الأوربيين، ومازال يثيرها، كما نرى الآن الحرب العراقية الإيرانية، أتريد أدلّة أخرى.

- قضية الدين تتعلق بالفرد نفسه أنا شخصيا مسلم شربت الفودكا وأكلت مع صديقتي الصوصج .. الدين ياصديقي مثل السكين يمكن أن تستخدمها في المطبخ لغاية حسنة فتقطع بها الفاكهة والخضار واللحوم، كذلك تقتل بها إنسانا بثورة غضب.

- لاتبسّط لي الأمور كما لوكنت تلميذا في الابتدائيّة أو أن تستخدم أسلوب المتديِّنين نفسه مع أني أعرفك بعيدا عن ذلك!

- لا لا أبدا كلُّ شيء له جوانب إيجابية وسلبية!"

صحيح لكن الدين يمكن أن يكون أكثر خطورة كنت أرى وأنا صغير كيف نفّذ القسُّ وصية المسيح لايدخل غنّي الجنة في ذلك اليوم ماتت عمّتي وفي اليوم نفسه جاء القس لأبي يعتذر عن قرع ناقوس الجنازة حيث قال إن الثريّ فلان الذي ينفق الكثير على الكنيسة من ماله أعلن عن زفاف ابنه في اليوم نفسه ولم يكن والدي ثريا ولاعمتي لتنفق مثله لقد تغلب العرس على الجنازة بفضل النقود في كنيسة المسيح إذاً إلى الجحيم " والتفت إليّ وهو يقطع استرساله المعهود" أتحب أن أوصلك بالسيارة؟

ذلك هو المكان الوحيد الذي رفض أن يدخل معي إليه!

لم أنتظره لكنّي ذهبت وحدي حتى إني شكرته فأعرضت عن أن أستقل سيارته لئلا أسبب له أي إزعاج.كادت الكنيسة تكون خاوية .. ثلاثة رجال وأربع نساء.ظننت أنّ العيون انصبت حولي، لوني شعري طولي سمات تختلف عن هؤلاء.كان وجود السيد باول معي في الأماكن العامة يخفف عنّي نظرات العيون، ويشعرني بشكل ما من الحماية والحصانة اللتين تبعدان عنّي الفضول والثرثرة وتجنباني الوقوع في الخطأ.رتلت معهم، وتمتمت، وجالت عيناي في الانوار الساطعة ونقوش الحيطان والتماثيل، وحامتا حول القس الشابة التي

سحرتني بابتسامتها وهيئتها.كنت أضيف ساعة الكنيسة تلك إلى مجمل الساعات التي أقضيها في المدرسة أو الأماكن العامة الأخرى والنوادي تلك الساعات التي تأخذني بعيدا عن عالم الفوضى والحروب والمشاكل إلى دنيا مفعمة بالراحة والانشراح.ومع ما في ذلك من صفاء ونعومة إلا انني لم أعثر على مشهد يشيع في نفسي الطمأنينة والصمت مثلما فعله بي مشهد البجع في صالة الأوبرا بموسكو .. لم يسأل أيّ من رواد الكنيسة ولا القسيسة نفسها عن اسمي أو كيف قدمت على الرغم من نظرات غريبة رافقت حركاتي.دخلت مثلما خرجت كأنّي لاشيء قطّ.وكأنّ التجاهل والنظرات الخفية استفزتني فصببت كلّ احتجاجي مرّة واحدة في المساء حين زيارتي للسيد باول:

- لاأدري لِمَ لَمْ يكلمني أحد، ولاالقسيسة نفسها لكنهم كانوا ينظرون إليّ بدهشة.

فقال بابتسامة واسعة:

أنك تنفعل بسرعة ولاتستطيع إخفاء انفعالاتك تلك خصلة جيدة تبعدك عن النفاق لكن المجتمع هنا يكبح عواطفه وانفعالاته بالأمس حاولوا سرقة بيتك فقرأت التأثر على وجهك واضحا واليوم شعرت بالعيون تتطلع إليك في الكنيسة فبدا الإحباط على وجهك وأنت لاتدري أن من طبيعة الدنماركيين أن يستطلعوا بعيونهم أوّل مرّة ثمّ يستخدمون ألسنتهم فيما بعد.

- لكنّ الأمر مختلف في الأماكن الأخرى.

- كانوا قلّة اليس كذلك؟

- ثمانية معي.

- الم أقل لك إنّ الكنائس سوف تتحوّل إلى متاحف.

- لكنّ هذا غير صحيح في معظم الحالات.الناس يحتفلون بأعياد الميلاد، وحين يولدون يتمّ تسجيلهم في الكنيسة، وفي حال الوفاة يرث الأبناء وفق ماينص عليه العهد القديم، وفي الزواج يوقع العروسان أنهما غير محرمين من محارم الدرجة الاولى وهذا ما أوصى به النبي موسى، كلّ ذلك تلتزم به الدوله وتؤكده الدروس التي تعلمتها في المدرسة.

قال بامتعاض:

- هذه التعاليم موجودة في الدين المسيحي لكنها لاتخصه وحده تراها عند المسلمين وفي الصين والهند وعند اليابانيين والهنود الحمر والسيخ إنها أشبه ماتكون باتفاق دولي ورثته البشرية عن بعض الأديان .

- إذاً من العبث أن نقول إننا تخلصنا كليا من تعاليم الدين.

ردّ على مضض:

- لن يكون سهلا أن نتجرد من مخلفات الماضي مهما بلغت مجتمعاتنا من الرقي!

في اليوم التالي زارني السيد باول وعرض علي زيارة متحف قديم في الهواء الطلق .لقد سررت بالفكرة .. فقد رأيت برفقته غرفا قديمة تضم أسِرّة مشتركة لعوائل القرويين وثيابهم ومطحنة لطحن حبوب القمح وبعض السيوف والدروع وادوات الزراعة والحَفْر .. وكان في وسط تلك القرية الشبيهة بالمتحف بعض البيوتات المتراصة وصخورٌ كبيرة متناثرة في باحة بين البيوت يجتمع عليها مجلس القرية البلدي .. توقف الزائرون وكان معظمهم من طلاب المدارس برفقة معلميهم .. التفت إليّ باول قائلا:

- سنشاهد عرضا مسرحيا في الهواء الطلق!

مرت بضع دقائق فاندفع شاب يرتدي ملابس القرون الوسطى .. ويجرُّ وهو يلهث من الجهد والتعب عربة انتظمت على سطحها سلع متباينة الأحجام والأشكال ومشروبات مختلفة من بينها قنينة كبيرة خط عليها (شراب قوي). طرق الشاب بابا أطلّت منه سيدة جميلة قابلته بنفور وغضب ثم طردته وصفقت بوجهه الباب بعدئذٍ جاء قس متسللاً من مكان ما كان يتلفت كاللص توقف عند الباب ذاته تلفت ثانية ثم دق الباب رحبت به السيدة وأدخلته .. بعد لحظات خرج ليشتري بضائع من صاحب العربة الشاب الذي رحب بالقس وقدم له من الشراب القوي كأسا .. استحسن القس الشراب وكرع أكثر من كأس ثم سقط فاقدا الوعي من السكر ويبدو أن السيدة استبطأت القس فخرجت إلى الطريق وعندما وجدته في تلك الحالة المزرية ركلته واقتادت الشاب من يده إلى بيتها!

عزيزي موسولوف:

لاأخفي عنك أن مشهد القس المغمى عليه ذكرني بمنظر بعض الروس الذين يفقدون الوعي على الأرصفة من مواصلة الإدمان على الفودكا رأيت بعضهم منبطحا على الأرض في النفق أو الرصيف ولم يكن أي منهم ليعنيني أو يعنيك تلك اللحظة كنت غائبا عن عيني .. فضحكتُ من كوني قد أكون مررت بك يوما وأنت ملقىً على الرصيف فاقدا للوعي من شدة السكر فلم أعرفك .. سأكون مثل جارتي العجوز الدنماركية التي تجاهلت اللصوص وهم يقتحمون قنّ الدجاج لاأدري مشهد الروسي المغمى عليه حضر جنب مشهد القس صريع الخمرة، سأتجاهلك وأضحك في سرّي من الآخر، وفي طريق العودة قال صديقنا المشترك باول:

- رأيت كيف كان يعيش الدنماركيون قبل عصر النهضة.

- كدت أشعر بقشعريرة البرد وأنا أرى سريرَ قشٍ ينام عليه أكثر من عشرة !

- أوبئة وقمل .. طاعون بسبب العيش المشترك .. ماذا يحصل خلال برد قارس لخمسين شخصاً ينامون في غرفة واحدة طالبين الدفء؟ " ثمّ أجاب نفسه مباشرة" هذه حياتنا في السابق!

قلت بخبث:

- كل ذلك يبدو سهلا مقابل مشهد القس المسكين!" وأضفت لامزا" أعتقد أن المشهد وافق مزاجك!

فأطلق ضحكة خافتة، وكان يوقف سيارته أمام مرآب منزله:

- أنا بطبعي لا أكره أحدا لكن هذا القس الذي ظهر في التمثيلية هو نفسه القس الذي رأيته في الكنيسة يوم أمس.

قلت مقاطعا:

- كانت قسيسية سيدة ياصديقي العزيز " وواصلت متهكما" لو كانت النساء أئمة عندنا لأصبح كل الرجال متديّنين!

ردّ من دون اكتراث:

- أعرفها جيدا .. لايهم قس أو قسيسة كلاهما بعيد عني!

ثمّ واصل استرساله:

- هو هو بعينه وهو نفسه عاش زمن بوذا وقبله كان في معابد السومريين ثم في المساجد بعد ظهور الإسلام وظهر في محاكم التفتيش يقتل الناس وأكّد دوران الشمس حول الأرض .. أنك تراه في كل عصر وكل مكان .. هؤلاء طاعون يستشري في كل زمان ومكان!

وعضّ على شفته فظننت أنه يفتعل الجد:

كل الحقول والمعارف تتطوّر إلا ...

ويبدو أنّه لم يقدر على مواصلة الكلام .. مال خلال لحظات إلى الأمام وهو يمسك بخاصرته.صرخ صرخة حادة، فهرعت إلى المنضدة حيث الحبوب، وهتفت:

- هل اتصل بالسيدة أليزبث.

ردّ عليّ وهو يتلوى من الألم، ويصرخ صراخا حادا خلته يمزق جدران البيت من شدّته:

- كلا لاتزعجها ستعرف غدا!

فرفعت سماعة الهاتف، ورحت أدير القرص وأتحدث مع الإسعاف، وأنا اراقب وجهه الذي بدأ الدم ينسل منه، فيعود إلى صفرة غريبة شبيهة بصفرة نبات الزعفران.

تابع للتهويمة الأولى

"من سوء حظ البدوي أنه وجد القوم الجدد أكثر قسوة من السابقين وزاد الطين بلّةً أنّه كلّما حلّ بقوم وجدهم يعاملونه معاملةً قاسيةً ومازال إلى اليوم يلفّ الدنيا باحِثاً عن قوم لايؤذونه".

تابع للتهويمة الثانية

"حول كَتِفَيْ عروسه المحبوبة كان يضع ذراعه

فكانت مثل ضوء النهار وهي تعتلي العرش"

تابع للتهويمة الثانية أيضا

" أما أنا فقد وجدت أناسا طيبين قبلوني بينهم. أصبحت واحدا منهم، لكني أفكر فيكِ فهل أجدكِ تنتظرينني أم أنت الآن تنامين في حضن رجل آخر"

- 4 -

كنت في شوق إلى التطواف معه في الغابة .. عصر اليوم التالي .. حقا لقد انتهى موسم الفطر الآن لكنه كان يفضل المشي والتمتع بمنظر الأشجار الضخمة والسناجب التي تهبط أو تقفز بين الأغصان ..ربما نكتشف شيئا آخر هناك خلال فصل الشتاء .. هكذا حدثت نفسي .. أصبحت الآن أميز بين فطر أليف وآخر سام، فهل ياترى أستطيع أن ألتقط فطر الأرض بمفردي .. وكنت أضع الكتاب على المنضدة لأعيده له في الموعد القادم ..

لكن هذه المرة تغير كل شيء فقد داهمه المرض من دونما رحمة ..

كان يرقد في المشفى غائبا عن الوعي عندما وصلت الرسالة.السيدة "ليزبث" اتصلت بي عبر الهاتف من شقتها في وسط المدينة في حدود العاشرة صباحا ..أخبرتني أنّها استلمت رسالة غريبة معنونة للسيد " باول نيكلسون" يبدو أنها من روسيا كما هو واضح على الغلاف:

موسكو 1990/10/20

عزيزي باول نيكلسون

تحية لك ..طابت أوقاتك.

لعلك تذكر صديقك القديم الأسير الروسيّ " موسولوف".حينذاك كنتُ الشخص التعس الذي قاده القدر إلى المعسكر الإسطبل.من سوء حظي وقعت في الأسر ومن حسن الحظ أني عرفت شخصا مثلك .. بين عامي 1943 و 1990مايقرب نصف قرن من الزمان.رغم ذلك فأنت باقٍ في الذاكرة لأنّك كنت صديق الجميع.لم أكن أفهمك حين كنتَ في غفلة من الحراس الألمان تتحدّثُ مع بعض الأسرى لكنّ ابتسامتك ولطفك جعلاني أحلّق وأنا في السجن إلى فضاء الحرّية، فعرفت أننا سنحيا ونعود إلى بلداننا يوما ما .. كلّ ذلك دفعني أن ارسم بأصابعي دوائر في الهواء، وأهمس، فعلت معك مثلما يفعل أسرى كثيرون، وسرعان ماعرفتَ مقصدي فكتبتَ لي العنوان على باطن علبة سجائرٍ مازلت احتفظ بها علامة منك تذكِّرُني بكَ ودليلاً على حريّةٍ تنبع من داخل الأسر وتحلّق بعيدا عن القضبان.

صديقي العزيز

كتبت في عهد ستالين ومابعده رسائل عديدة إليكَ يبدو أنّ الرقابة صادرتها، ربّما لكوني كنت أعمل في قسم الاتصالات بالجيش مما يجعل رسائلي مراقبة اكثر من أيّ شخص.الآن بعد انهيار النظام الشيوعيّ سطَّرتُ إليك هذه الرسالة .. آمل أن تقرأ عباراتي وكلّي أمل أن نلتقي. إحساس نابع من داخلي يقول إنك مازلت حيا. ظروف غريبة جمعتنا يوم كنا في العشرين من اعمارنا، و الآن نحن في سنّ التقاعد. أرجو أن َتصْدقَ ظنوني في أنك حيٌّ الآن.سوف أبعث لك بصورة لي التقطتها بعد عودتي إلى موسكو من الأسر .. !

هل تلبي دعوتي لزيارة موسكو؟

آمل أن تجد رسالتي هذه صدى عندك، فكلّ أحاسيسي وهواجسي تخبرني أنك حيّ.

المخلص

يوجيني موسولوف.

شيء مذهل حقا ..

ربما تتأجل الغيبوبة لو وصلت قبل بضعة أيّام تلك الرسالة المهاجرة من زمنٍ بعيدٍ غريبٍ عن عصرنا لكني كنت ضحية تملل موسكو البطيء قبل أي شيء آخر .. لماذا انفجرت في وقت لم أعد بحاجة فيه إليها. موسكو لم تنس أصدقاءها القدامى لكنها نسيت .. وتناست .. كأني لم أعش فيها خمسة أعوام ولو صبرت عليّ سنتين ..

هل هو حظي العاثر أم حظ خطيبتي التي تنتظرني أم حظ موسكو التي تأخرت!

كانت "ليزبث " تقف أمام المنضدة بثوبٍ أسودَ مخططٍ بدوائر بيضاء يكشف عن كتفيها البرّاقين وتتابع باهتمام ترجمتي للرسالة الغريبة .. وكانت عيناي تنفلتان بعض الأحيان من الحروف الغريبة وتهبطان بين لحظة وأخرى مثل حمامتين على حافة كتفيها!

بياض رائع راقٍ تكاد أنامل الزمان تتسلل إليه خلسة من العيون!

هذه هي المرة الأولى التي تزورني فيها السيدة " ليزبث " في منزلي!

لم نلتق سوى مرّتين: في منزل والدها ليلة بتّ هناك والثانية كانت زيارة عابرة لشقتها دامت أقل من نصف ساعة مع الأب باول في أثناء مرورنا بمركز المدينة .. كانت تسكن قريبا من محلّ عملها في شقة صغيرة .. وقتها كنا في شارع المشي عندما تذكر السيد باول أن عليه أن يستعير لأجلي منها كتابا عن الفطر يطالعه معي حين يذهب إلى الغابة فاتصل بها عبر الهاتف .لم تطل الزيارة أكثر من نصف ساعة، والحق إن ترتيبها لشقتها الصغيرة كان ينمّ عن ذوق رفيع واهتمام بأناقة الأثاث!

كنت أتحاشى أن أتحدّث معها طويلا. بدت لي غريبة الأطوار إلى حدّ ما، سيدة مطلّقة اكتشفت بعد الزواج أنّ شريكها مدمن قمار. بدا لها ملاكا في روح شيطان استطاع باقتدار أن يخفي عنها شخصيته المقامرة ثمّ تيقنتْ أنّه يروم أن يقامر بشقتها ليعوّض خسارة كبيرة لحقته.

مع ذلك فقد وجدتُ في زيارتها رائحة غريبة نبشت الماضي القابع منذ زمن بعيد ..خلال السنتين الأخيرتين في كلية طب موسكو كانت ناتاشا آخر صديقة تثبت معي .. تعلقت بي في سورة حب مجنونة .. أصبحت أطرب لكلمة أحبك التي تقولها من دون لكنة فلم تعد جاريتي المسبية يوم كنت أجلس فتحدثني عن النساء الخائنات .. مع ذلك لم أر حورية السمراء عارية فوق طيات جسدها الأبيض مثلما أراه الآن على كتفي "ليزبث " .. في الوقت نفسه أبصرت الغزلان تسرح .. والأسماك الفضية والحمراء .. والشجر والماء وحقول البر وزرقة

البحر ..رحت أرى بجعات تصطف على ضفاف البحيرات بعضها يقف على رجل واحدة وبعض يدس رأسه بين جناحيه وكدت أستغرب من الصيف الجميل ونتف الثلج حين تهبط في عز البرد إذ أرى وسط الحشد بجعة سوداء. كثيرا ماسألت نفسي هل رأيت بجعة سوداء حقيقة أم كنت أحلم .. البجع أبيض .. والغربان سوداء، فهل تكون البجعة غرابا .. كل شيء محتمل مادامت الذئاب تنام نهارا وتصطاد ليلا .. أنا أعيش عالما أصبح فيه الذئب بوما والبجع غربانا لو ذهبت إلى عراف في البصرة لتنبأ بوقوع كارثة .. زلزال قريب يدمر العالم .. انفجار في محطة نووية .. عاصفة هوجاء .. وحده صديقي باول يبصر الحقيقة يوم أكتشف أنّ القطن يمكن أن يصبح ذا لون أحمر غير أنّي لو زرت طبيبا مختصا لعدّها بوادر لمرض نفسي خطير عليه أن يدرك متى بدأت علاماته الأولى من المحتمل أن يرى الطبيب البيطري تلك الظواهر طفرة في الجينات .. كلّ يفسر الأمر حسب طريقته .. وكل ذلك كان يجري في بضع ثوان ..

عالم متناسق متكامل مغر مثير ..

كأنني أقف أمام بلّورة لساحرة قديرة ..

ثم فجأة خطرت حورية لي .. من أين جاءت .. ومن أيما مكان ظهرت؟ راحت تتعرى أمامي من غير ما خجل .. تنظر إليّ بعينين زائغتين ولو نطق الحجر لنطقت، وكنت أرى قطعة ملابسها الداخلية حمراء مفضضة بنجوم صغيرة زرقاء هي نفسها قطعة الملابس التي رأيتها ذات صيف على السطح. كنت بتّ ليلتي في بيت عمي وخلتُ

أنّ زوجة عمي نسيت الملابس على الحبل .. ظننت القطعة لحورية .. نجوم بحمرة ساطعة براقة .. فتحرك شيء ما في إحساسي ردعته بتأنيب ضمير .. لم يخطر في ذهني أن تلك القطعة لعمتي .. وعلى ظهر السيدة " ليزبث""لاحت لي تلك الحورية .. وقفت وابتسمت وبدأت تتجرد من ملابسها قطعة قطعة .. أصبحت عارية مثل الغزلان لم أفكر الآن بنيَّة سوداء كانت عارية إلا من قطعة الملابس ذت النجوم الساطعة الحمراء التي رأيتها على حبل الغسيل .. مع ذلك لم ترفع بصرها نحوي وحين توقفت عن القراءة قبل أن تختفي حورية عن عينيَّ بدت على وجه ليزبث علاماتُ دهشةٍ وارتياح:

- كان يكتب عنوانه على قصاصات ورق ويدسها بأيدي الأسرى مجرد أن يلوِّحوا له أو يقول له أحدهم هامسا "adress…adress".

- أجل حدثني عن ذلك!

أضافت تزهو بثقة أبيها بنفسه:

- إنه لم يكن ليبالي بالحرس كما أخبرني لأنه يتعامل مع أسوأ الأحداث ببرود تام!

- وهل راسله جميع من دسّ في أيديهم قصاصات بعنوانه!

فقالت وهي تهزّ كتفيها:

- على ماأذكر واحد فقط.

- يبدو أن فرحة الحرية أنست الأسرى ممن طلبوا العنوان أن يكتبوا إليه مع ذلك فهذه الرسالة أغنت عن الجميع!

- هناك رسالة وصلت إليه من بولندي كان من مجموعة الأسرى أظن اسمه " سوارز يازنسكو" كان يكتب رسائله بالإنكليزية.

- هل أجابه السيد باول؟

- والدي لايهمل أية رسالة استمرت الرسائل بينهما ثلاث سنوات لذلك بقي اسمه محفورا في ذاكرتي لا لكونه أول أسير محرر كتب لوالدي ثم انقطعت الرسائل من قبل البولندي الذي عرفنا فيما بعد أنه قُتِلَ في حادث سير!

في عمقي سخرية وأسف وحكاية تطرق رأسي تعرفها حارتنا عن جنديٍّ أبلى بلاء حسنا في حرب فلسطين 1948 فنجا من موت محقق هناك غير أن حظه العاثر دفعه إلى أن يسقط في إحدى البالوعات القديمة:

- تصوري لم يمت في الحرب بل في يوم عادي بحادث عرضي!

قلت عبارتي ولم أدر لحظتها أيّ الجنديين أعني.

- هذه هي الحياة !

- مثلما أقف أنا أمامك الآن هل كنت أتوقع أن أغادر موسكو إلى الدنمارك؟

وبعد تأمل هزت رأسها قائلة كأنها لم تسمع كلامي:

- غريب أمر ذلك الجيل!

- ماوجه الغرابة في ذلك؟

كمن يريد أن ينفث الهواء بعيدا عن رِأتيه:

- تعلّق هؤلاء الكبار بالماضي والذكريات التي انحصرت بإسطبل تحول إلى زنزانة وحالة إعدام حدثت في المكان نفسه أثناء الليل فلم يبق من ذلك الماضي سوى شخص يرقد في غيبوبة كأنه يعبر عن جيله كلِّه في كل بقاع العالم.

- لاتنسي لم تكن الذكريات عادية قط بل عنيفة تجسدت في الحرب والأسر والطيبة وتلك أمور تؤثر بالروسي الذي عانى كثيرا من الحرب وفقد أكثر من عشرة ملايين ضحية أي ضعف عدد سكان الدنمارك!

- لو وصلت الرسالة بعد سنة أو سنتين لما استغربت لكني نسيت الموضوع تماما وأول ماخطر بذهني أن الأمر مجرد التباس فقد نسيت تماما قصة الأسرى والعناوين.

- هل تعتقدين أنه يتذكر السيد موسولوف؟

- لاأظن ذلك فلم يذكر هذا الإسم أمامي مطلقا.

- لو استلم الرسالة قبل يوم .. على الأقل كان يمكن أن يعرف أنّ هناك أسيرا اسمه موسولوف يوجيني لم ينسه قطّ، حاول أن يبعث له برسائل خلال خمسين عاما دون أن ييأس أو يملّ لكن الرقابة زمن

الحكم الشيوعي منعتها، وهذا بحد ذاته مثير جدا " توقفتُ برهةً وأضفتُ" لعل ذلك يخفف عنه لكن. ..

وتوقفت كأني أبحث عن كلمة مناسبة فأجابت بثأثر:

- ربما ففي حالات معيّنة يمكن أن تتأجل حالات الموت بضعة أشهر أو سنين لكلمة .. جملة .. صوت أو حركة ذات معنى.

- من خلال دراستي للطب عرفت علاجا يسمى "الشفاء الذاتي"وأظن أن الرسالة كان يمكن أن تصل في الوقت المناسب فتصبح نوعا من العلاج .

شعرت أنّني في هذه اللحظة يمكن أن أكون قريبا منها.صديقا لايطمع فيها .. من دون لفحة عشق أو شهوة مقيتة .. لهجتها الحزينة، شفافية وجهها، نغمتها الدافئة .. الماضي الذي تحررت منه بالطلاق من زوجها .. القمار .. ذكريات أبيها الميت الحي .. هواية ركوب الخيل وقد تخلت عنها حالما نضجت .. كنت أظن أن الدنماركيين سعداء .. مدللون، فلا حرب ولاكبت ولاجوع ولافقر .. لعلني نظرت بعين واحدة .. وأن هناك لحظة في الحياة يمكن أن أتعلّم منها مايمكن أن أسعى إليه خلال سنوات طويلة فربّما أصل أو لا .. كلّ شيء جعلني أشعر أننا كنا عائلة واحدة وأن هذه السيدة أوحت إليّ من خلال جمالها الذي بدأ الزمن يطوي بعض ملامحه لِمَ ينتحر من يعيش في نعمة الرفاهية ومن يتنعَّم بالهدوء المطلق والسلام الوادع الناعم، وجعلتني أقترب أكثر من حورية خطيبتي في العراق التي كنت إلى

هذه اللحظة أجهل مشاعري نحوها إذ أن كلّ شيء تغير بعد سنوات الطفولة فما إن نكبر حتى نمارس غربتنا، ننعزل تماما إذ لم يعد بيننا والبنات قريباتنا اللائي كنا نلعب معهن في الحارة غير السلام، والحديث العابر، وربما الخجل، والتحفظ، كانت أمي تقول كن عاقلا وذا سلوك قويم لاتخرج مع أصدقاء السوء ولاتشغل نفسك بغير دروسك امش وبصرك إلى الأرض حتى يزداد إعجاب عمك بك ولايغيِّر رأيه فيك فيزوجك ابنته عندئذٍ تربح الدنيا والآخرة الدنيا حيث ترث بعد عمر طويل لعمك جزءا من ثروته يذهب لابنته ويرضى الله عنك في الآخرة لرضا الوالدين وإزاء هذه النشوة وإطراء أمي أفتعل شيئا ما يزيدني سكرا فأتعمد أن أذهب إلى غرفة جدتي التي انقطعتُ عن عادة الاختباء تحت سريرها منذ أصبحت في المتوسطة وأخذت أخجل من تصرفات الأطفال لكن تحرشي تحول باتجاه آخر من جدتي إلى ياسين فكثيرا ماكنت أستفزه وأهتف به:

أدب أدب أدبي

أدب أدب أدبي

والحق إن ياسين كان يتجاوز عن كثير من استفزازاتي ربما لطبعه الهاديء ولكوني الأصغر وغاية مايفعله حين يرد على مشاكساتي أن يمط شفتيه أو يقول لي إنبح .. هل نسيتَ النباح؟!إنبح وخذ درهما مني ..

أما حوريتي القديمة التي رأيتها - قبل لقاء ناتاشا - خجولة هادئة، فقد فصلني عنها بعدما كبرنا جدار من الخجل كان سيظل إلى يوم القران سوى لمحة عابرة لقطعة ملابس داخليّة لمحتها على حبل الغسيل ذات يوم ..

لاأدري لقد أخذتني رسالتك بعيدا أيها العزيز موسولوف، فهل كنت تتوقع أن تقفز سطورك من مدينة دنماركية رأيتُها قبل خمسين عاما على باخرة رست في البصرة يوم لم تنهش لحمها بعد مخالب الحرب حتّى تستقر على كتفي ليزبث؟ .. قلت ومازالت الرسالة بين أناملي:

- لعله يفيق من غيبوبته فأقرؤها له.

- لاأظن فالطبيب يتوقع موته سريريا خلال الساعات القادمة!

هززت رأسي وأضفت وأنا أشير إلى كتاب " الفطر" الملقى جنب الرسالة:

- اتفقنا أن نذهب مثل هذا اليوم إلى الغابة وإن لم يعد هناك من فطر لولا .. !

فقالت بأسف ظاهر مؤكدة قول الطبيب:

يبدو أنه لن يفيق أبدا من غيبوبته فإما الموت السريري أو ..

-كنت آمل أن نلتقط الكثير الموسم المقبل معا إنه يحبّ الكنترالة وكارل يوهان !

وتحاشيت ثقل الصمت:

إنه يحبهما كثيرا بالأخص كارل يوهان.

وبعد برهة:

- هل تردِّين على السيد موسولوف؟

كأنها ترددت:

- اكتب إليه لو سمحت.

توقفت لحظة تفكر بما تريد أن تقوله كما لو كانت تستجمع الجمل المتناثرة .. وتحوم حولها حتى خلت أنها تقضي الدهر كله بالتفكير .. استوعبها الصمت طويلا فأغمضت عينيها ثم هزت رأسها واستدركت كمن أفاق من سبات:

- كلا لعلني تسرَّعت .. فعلا تسرَّعت ذلك جيل بدأ ينقرض دع السيد موسولوف يوجيني في حلمه الجميل فليس من اللائق أن نفاجيء الآخرين خاصة كبار السن بما لايتوقعونه.

ما أجمل أن تحلم وأنت تخوض رحلة المجهول بفتيات جميلات ضمن عائلة تتبناك في بلاد الغربة فتكون واحدة من هؤلاء إحدى صديقاتك وفي النهاية تجد أنّ هناك كهلا ينتظرك وأرملة بينك وبينها فرق كبير في السن .. أنا إذاً سأبحر في حلمٍ جميلٍ آخر وضعته " ليزبث" بين يديّ .. لعله يلوح لغيري عملا غير خالص .. تزوير حقائق .. انتحال صفات .. تقمص شخصيات .. إحدى الطرق التي شيّعتُ بها جواز سفر ميت .. إيهٍ أيتها العظيمة موسكو فيك مارست الحب للمرة الأولى وشربت الخمر وأكلت الفأر الكبير لكنني لم أجرؤ

على التقاط الفطر هناك الذي تزهو به غاباتك، وها أنا أؤدي عملا آخر قد لايعجبك، .. كثير من الأمور يمكن أن ينظر إليها الآخرون كلٌّ حسب بعده عنها لكني واثق من أن عملي هذا يدخل السرور على قلب شخص هو بحاجة إلى المرح مثل السيد " موسولوف":

- كما ترغبين .

واستدركت باهتمام:

- لو تركت الرسالة حتى انسخ لك ترجمتها .

- أترى في ذلك فائدة؟

فكرة مارقة تتعبني .. تطاردني وفي رغبة جارفة لأن أخوض غمارها:

- لنجرب فلن يضرنا ذلك في شيء!

فهزت رأسها كأنها تلتمّ من شتات:

- لك ذلك ولو أني لاأظن عودته للوعي مرة أخرى!

ثم التقطت حقيبتها وقالت وهي تهم بالمغادرة:

- أنا ذاهبة إلى المشفى الآن

- حسنا سألتحق بك بعد ساعة.

- ليس من الضروري أن تتعب نفسك!

- لا بالعكس السيد " باول" مثلما هو أبوك هو صديق لي أو أخ أكبر أو أب فليس هناك من أحد تربطني به علاقة في الدنمارك غيره وأظن أني سأواجه فراغا هائلا بسبب غيابه ..

عدت إلى مكاني عند النافذة، وأنا أتأمل صورة الشيخ الروسي الأصلع ذي العينين الوادعتين و الرسالة الملقاة على المنضدة جنب كتاب " الفطر" الذي تذكرت أنه يعود لها ولم يكن من اللائق أن أذكِّرها به هذه اللحظة في حين راح صوت محرك السيارة يختفي ويتلاشى شيئا فشيئا فيعود الشارع إلى سكونه المعتاد . كنت أود أن أستقل السيارة معها إلى المشفى لكن هناك هاجسا قويا وأفكارا تدور برأسي تلح علي أن أفعل شيئا ما .. خواطر كثيرة يمكن أن أنساها إذ أُهمل تدوينها هذه اللحظة ومن حسن حظي أن السيدة "ليزبث" تركت الرسالة على المنضدة كأنها لاتعنيها .. من حقي الآن أن أكتب العنوان في دفتري الخاص! .. لدي عشرات الصور الحديثة للسيد باول في مناسبات شتى .. لاشيء غير أن أكتب رسالتين الآن: واحدة إلى السيد موسولوف بصفتي " باول نيكلسون" أشكره فيها على رسالته، سأكتب إليه بالروسية مدعيا أن قريتنا استقبلت بعض اللاجئين الآسيوين وقد استعنت بلاجيء يعرف الروسية وكم كنت أود لو بقي منذ ذلك الوقت معي هنا في هذه القرية الوادعة الصغيرة سأقول له إني شعرت بفراغ بعد أن رحلوا وكنت آمل أن يظل واحد منهم معي لكنّ الجميع أصروا على العودة . أنا أعرف خطابات الدنماركيين كلّها مركَّزة ومختصرة لايدخلون في تفصيلات بخاصة

عندما يكتبون رسائل لكن قد يكون السيد " موسولوف" مصابا مثل صاحبي بمرض عضال فتدفعه رسائلي إلى أن يعيش مدة أطول .. بلاشك هو في هذا العمر يعاني وبحاجة إلى بعضٍ من الشفاء الذاتي .. سوف أمارس هوايتي عن بعد محاولا أن أطيل برنامج حياته. أيضا أكتب رسالة أخرى لوالدي بصفتي طبيبا تعاقدتُ للعمل في الدنمارك ولا أنسى ان أبعث في تلك الرسالة بسلام حار إلى حورية التي خطرت أمامي قبل لحظات متجردة من كلّ شيء .. غير الشابة الخجول التي تُنكِّس عينيها إلى الأرض وغير الطفلة التي تصغرني بثلاث سنوات حيث اعتدت في كثير من الأحيان أن أزور بصحبة والدي قصر عمي في الخورة، فتقع عيني على ألعاب كثيرة بعيدة عن التصور والخيال. أسأل نفسي تلك أشياء لم أرها في شارع أو سوق فمن أين جاءت بها؟ ومن أيِّ محل تجاري جاءت تلك السيارة الصغيرة ذات المقود التي أجلس خلف مقودها وأحرك دواستي أسفل قدمي فتسير بي مثل سيارة حقيقية؟وكم كنت أود لو أن عمتي أعطتني السيارة بعد مدة مثلما تمنحني الألعاب الأخرى التي تعافها حورية حتى أتباهى بها أمام أولاد الحارة الذين لم يصدق بعضهم أن هناك سيارة لعبةً لها مقود ودواسة تسير مثل السيارة العادية ويبدو أن حورية لم تكن لترغب عن تلك السيارة في يوم من الأيام، وعندما كبرت ووعيت سألت نفسي مرارا: كنت ألعب معها أساعدها على ركوب العربة وأقود سيارتها الكبيرة أو أحمل عنها بعض الوقت لعبتها ولعلي أمشط شعرها ثم أعود بعد ساعات إلى حارتنا في

الصنكر محمّلا بألعاب هدية منها يحسدني عليها أولاد الجيران .. أكلُّ هـذا يجـري لأن زوج عمتـي لايرغـب فـي الـدماء الغريبـة؟ وكانـت عمتــي، غالبــا مــاتقرص أذنــي قرصــة خفيفــة وتســألني بابتســامتها العريضة قبل أن تضع الهدايا بين يديّ:

- ماذا كنت تفعل تحت سرير جدتك البارحة أيها الولد الشقيّ؟

فأموء وأنبح وأموء وأقلّد صوت جدتي التي أصبح لسبابها لي نغمة أخرى ورنين جميل بعد أن فقدت جميع أسنانها ..

مثقوفي .. إنكليثي ..

فتزداد ابتسامة عمتي وتملأ جيوبي وجيوب حورية بالمكسرات، وتعقب قائلة: كن عاقلا ولاتزعج جدتك .. تذكّر دائما أنها أمي كن ولدا مطيعا واجتهد في دروسك وإلا منعتك من اللعب مع حورية، ويبدو أن عمتي ذات سلطة واسعة على زوجها بخاصة فيما يتعلق بمستقبل ابنتها وأظن أن هواها في اختياري لحورية وافق هوى الجميع: زوجها، وأخيها أبي وأمي التي كانت تشجعني على أن أكسب رضا عمتي!

لابد أن ألمّح إلى ذكر حورية - في رسالتي الموعودة- أخصها بسلام ذي معنى . وفي رسالة ثانية أعبِّر لأبي عن رغبتي في الزواج منها .. فقد قرأت وجهها وكل تقاسيم جسدها من غير ما خجل على صفحات ظهر السيدة ليزبث" المتشح بالسواد .. قد تكون ماتزال تنتظر .. ربما .. لاأدري .. خاطر كدر وهاجس متوحش يوحيان إليّ

أنها قد تكون تزوجت بعد طول انتظار فأجدها – إن رجعت ذات يوم – حاملا ذات بطن مكورة ووجه مصفر ذابل أو لعلها تكون قد رحلت مع زوجها إلى محافظة أخرى وربما لا قد تكون ما زالت تنتظر .. ما عليَّ إلا أن أتوقع أسوأ الاحتمالات وفي بالي أيضا أحلام عريضة ساطعة أوسع من مدينة تغني للشمس والإشراق خلال موسم الثلج والصقيع ..

إني أحتاج إلى بضع دقائق ألتقط خلالها تلك الهواجس الرائعة التي اجتاحت بدني منذ بدأتُ قراءة رسالة السيد "موسولوف" التي وصلت بعد خمسين عاما من الغياب فوجدت فيها بعض العوض عن شيء أوشك أن يكون بيدي لكن أسبابا حالت بيني وبينه وهناك جدار أقرب إلى المحال يفصلني عنه الآن!

بضع دقائق فقط!

لاأريد أن أخسر كل شيء ..

نعم لقد فقدت أشياء كثيرة قد يقال ذلك قَدَرٌ أو سوءُ حظٍ فكفى إلى هذا الحد .. فقد بدأت حياة جديدة في هذا البلد والناس الذين يحيطون بي يمدُّون لي يد العون!

أزحت كتاب الفطر الذي فاحت منه رائحة ورق مصفر متناثر هنا وهناك كتمتُ أنفاسي برهة .. وأحسست بصخر صلد يقبع في رئتيّ كابوس يجثم على صدري .. مهرة سوداء تعبر على ضلوعي، فالتقطت علبة البخاخ شفطت منها جرعة طويلة ..

امـتلأت رئتـاي بـالهواء ..كانتـا تنتعشـان كـأنني فـي هـذه اللحظـات القصيرة سافرت مع حظي العاثر بعيدا عن الهواء المتمرِّد ثم عدت إليه فخلتُني أستطيع أن أحتويه كلّه ..

لحظات ورجعت إلى هدوئي ..

ربما لا أجرؤ على الذهاب وحدي إلى الغابة والتقط فطريات على الرغم من أني خبرت جيدا النوعين السام والأليف وروَّضت مايخرج من باطن الأرض كما يفعل يوهان مع الخيول لكني كنت مقتنعا تماما بما أقدم عليه من غير أن تراودني فكرة كوني متطفلا أومنتحلا شخصية رجل آخر وأدَّعي وظيفة ليست لي غرضَ أن أداري إحباطا أعاني منه وأعوِّض عن خسارة كبيرة تعرضت لها .. عملية تزوير بشكل آخر لاتشبه مافعلته حين غادرت موسكو فقد كنت حينها أدافع عن نفسي فأهرب من موت .. من حربٍ عايشها قبلي " موسولوف" أو أَسْرٍ فرَّ منه ذلك التعس البولندي الذي صدمته سيارة ما بعد حين .. أما الآن فقد بدأت أعالج الآخرين فانا أكثر ما يمكن أن أصف به نفسي كوني ممرضا لاأقل ولا أكثر .. رجعت من موسكو إلى العراق بوظيفة ممرض .. ضاعت نقود أهلي الذين حلموا بي طبيبا فهل أضحك من نفسي أم ياترى هناك أناس كثر مثل السيد " موسولوف" ينتظرونني؟؟إني في هذه الحالة أمارس مهنتي على مريض بعيد عني من دون أن يحس المريض نفسه.فكرة جديدة ربما تخلق فرعا للطب من ابتكاري .. لا أظنني في هذه الحالة أزوِّر واقعا عشته، لأفترض أني رجعت إلى العراق طبيبا ومارست الطب عدة سنوات. أصبحت

جراحا مشهورا، بضربة واحدة من سوء الحظ يمكن أن أخطيء في عملية ما .. أنقل عضوا صحيحا بدلا عن المريض أو تسوِّل لي نفسي أن أسرق خفية عضوا سليما من مريض لأزرعه مقابل مكافأة في جسد آخر ثم تنجلي الأمورفافقد وظيفتي. أفصل من عملي .. بالتالي أجلس في البيت لافرق بيني وبين أي ممرِّض وهو مايمكن أن أعمله، ولو سافرت إلى أي بلد آخر وادعيت أني طبيب بشهادة طب أقتنيها مثلما اقتنيت جواز سفري الذي وصلت به إلى الدنمارك فلا أحد يشك من خلال معلوماتي أني لم أكمل الشهادة الجامعية.

اقتنعت تماما أني لا أعمل خطأ ..

هناك مريض في دولة أخرى أريد أن أعالجه من دون أن يدري .. لأبدأ بعد وفاة صديقي باول .. أحاول من جديد أغيّر من طبيعة الأشياء .. أرى بجعة سوداء في الحقيقة فأدعي أنه حلم .. أعرف من جارتي أنّ لصوصا شقر البشرة زرق العيون سرقوا دجاجاتي فأقول إن لاجئين من زمرتي دعوني لوليمة وبعثوا بعضهم يسرق منزلي .. كانوا يطعمونني من مخزون بيتي بدافع السخرية .. منذ غادرت برلين بجواز سفر آخر حق لي أن أغيّر ما أجده مناسبا لأن يتحول إلى شكل ثان ... سأكون – على الأقل وفق رؤيتي الجديدة - مثل شخص تداولت حكايته حارتنا جاء ليسرق بيتا فوجد امرأة في الدار أنهكها العمل فأخذتها غفوة عميقة وانحسر ثوبها ليكشف عن جسد بض جميل فأشاح بوجهه عنها وغطى ذلك الجسد وهو يستعيذ بالله من الغواية ..

رسالة موسولوف وموت يوهان .. سأحاول أن أحفظ توازني بينهما لقد تفرغت للكتابة في لحظات الصفو تلك فاستعنت على استرداد نَفَسي الذي خامره ضيق مفاجيء بعدما تلاشى كلُّ شيءٍ وخيَّم الصمت من جديد بجرعة من دواء الرّبو ولم يشغلني عن الرسالتين أي موضوع آخر سوى أني رحت أسأل نفسي بأيهما أبدأ: موسكو أم البصرة؟

البصرة أم موسكو؟

ذلك هو الثلج وتلك هي الرطوبة والحر!

لايهم .. !

لكن مهما يكن فعلي أن أكتب الآن قبل أن تتلاشى من ذاكرتي بعض المعاني!

كوبنهاغن

خلال فترة سقوط الاتحاد السوفيتي

تنويه:

هناك رسالة حقيقية وصلت بعد سقوط الاتحاد السوفيتي ورفع الرقابة عن البريد من شخص روسي كان أسير حرب من قبل الألمان في إسطبل دنماركي مع مجموعة من الأسرى إلى موظف الإسطبل الدنماركي الطيب الذي كان يساعد الأسرى بالطعام والسجائر أحيانا فكان بعض هؤلاء السجناء يطلب منه خلسة في غفلةٍ منَ الحرسِ الألمان عنوانه وقد أرتني ابنةُ المرسَلِ إليه البالغة من العمر حينذاك خمسين عاما الرسالة التي ذهبت إلى السفارة الروسية غرض ترجمتها، كان الرجل قد توفي وقتها فأخبرتني أنها تأثرت وبعثت جوابا بذلك إلى الشخص الروسي.

الفكرة أوحت لي بالرواية هذه.

كما أود التنويه إلى أنني كنت أشاهد مع بعض الدنماركيين الأفلام التي تعرضها قناتا كوبنهاغن الأولى والثانية والتي كانت تُعْرَض خصوصاً للتعريض بالاتحاد السوفيتي ومعظمها من إنتاج هوليوود فكان بعض الدنماركيين يذكر لي أن هذه الأفلام لاتخص السيد غورباتشوف الذي بدأ بالإصلاح بل الحكم الذي سبقه في الوقت نفسه قال لي أحد أعضاء الحزب الشيوعي الدنماركي قبل حلِّ ذلك الحزب وكنت في زيارة له في بيته الذي لاحظت أنه ملأه بتحف وألعاب خشبية من المركز الثقافي الروسي قال لي أنظر ليس في منزلي تلفزيون نحن فقراء والحزب في الدنمارك يتطلب أصلاحات مثلما يفعل السيد غورباتشوف، في حين بعد انصرافي من بيت ذلك

الشخص قالت لي جارته الدنماركية إنه منافق بإمكانه أن يشتري جهاز تلفزيون حتى ولو كان مستعملا لكنه مثل بقية الشيوعيين الدنماركيين يحبون دائما أن يتكلموا بصيغة الذل وصورة المضطهد.

على أية حال إن روايتي " رسالة " اعتمدت في هيكلها العام أو نواتها الأولى على حادثة واقعية تطلبت أن أضيف إليها وأعدِّل فيها لكي تبدو بالشكل الفني الذي ظهرت فيه. إنني أكرر قولي دائما الواقع خصب وهو بؤرة للأحداث المثيرة التي نستلهم منها أعمالنا فنضيف عليها ونحذف منها بقدر فنجعلها عملا فنيا مستقلا بذاته أو واقعا فنيا جديدا له سماته الخاصة التي تميزه عن غيره.

الأمر الأخير الذي لابدّ لي من ذكره هو شكري للصديق العزيز الأستاذ الدكتور عبد الرضا عليّ الذي قال لي بعد أن اطلع على مخطوط الرواية إني تحدثت عن موسكو وكأني عشت فيها من قبل والحق إني للأسف لم أزر ذلك البلد العظيم الجميل لكني حاولت لأن أجمع معلومات من وسائل الإعلام والعراقيين الذين عاشوا هناك غرض الدراسة ومن الروس أنفسهم والحقيقة أن الروس يتمتعون بطيبة تجعلك تعتقد أن بإمكانك أن تتحدث عنهم وإن كنت لم تزر البلد نفسه.إنهم أقرب إلى روح الشرق من الغرب.

كذلك أشكر الناقد الجليل الأكاديمي المعروف الدكتور يوسف نوفل الذي صرف الجهد والوقت لمتابعة أدب المهجر ورحب حين عرضت عليه الرواية بالتقديم لها.

الدكتور قصي الشيخ عسكر

الاسم الكامل: قصي عبد الرؤوف عسكر

اسم الشهرة: قصي الشيخ عسكر

الجنسية الأصلية عراقية، يحمل الآن الجنسية الدنماركية ويقيم في بريطانيا

تولد: 1951

مكان الولادة: البصرة – العراق

بكلوريوس من جامعة البصرة كلية الآداب قسم اللغة العربية وآدابها عام 1973 – 1974

دبلوم بدرجة جيد من جامعة دمشق كلية الآداب قسم اللغة العربية وآدابها عام 1985 – 1986

ماجستيرمن جامعة دمشق كلية الآداب قسم اللغة العربية وآدابها بدرجة امتياز عام 1988

دكتوراه في الأدب العربي من الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية في لندن عام 2004.

الشهادات الأخرى

شهادة من المدرسة العالية بكوبنهاغن في اللغة الدنماركية

شهادة من معهد كمبردج في اللغة الإنكليزية.

البحوث العلمية المطبوعة:

آراء القدماء في البلاغة ط مؤسسة البلاغ لبنان عام 1987

قيم جمالية في نهج البلاغة.ط مؤسة البلاغ لبنان عام 1988

مفاهيم اقتصادية في نهج البلاغة ط مؤسسة البلاغ لبنان عام 1988

التشبيه والاستعارة في نهج البلاغة ط مؤسسة البلاغ لبنان عام 1988

الأسلوب القصصي في نهج البلاغة ط مؤسسة البلاغ لبنان عام 1988

الحسن بن وهب حياته مقالاته رسائله شعره مؤسسة البلاغ لبنان عام1988

النجاشي شاعر صفين مؤسسة البلاغ لبنان عام 1988

الاغتراب في نهج البلاغة مؤسسة البلاغ لبنان عام 1989

أساطير العرب قبل الإسلام وعلاقتها بالديانات القديمة أطروحة رسالة الدكتوراه دار معد دمشق 2007

معجم الأساطير والخرافات الجاهلية دار الوراق عمان.

قضايا مشتركة عند العرب والاسكندنافيين" مخطوط".

الحيوانات والحشرات والنباتات في الكتب المقدسة: العهد القديم، الجديد، القرآنالكريم " مخطوط".

الكتب الإبداعية الأخرى المطبوعة:

في الشعر:

رؤية مجموعة شعرية مطبعة الأمين دمشق 1985

صيف العطور الخرساء مطبعة الثقافة دمشق 1988

عبير المرايا دار اليسر دمشق 1992

رحلة الشمس والقمر دار الأضواء بيروت، 2002

الأعمال القصصية والروائية والمسرحية:

الشاعر مجموعة مسرحيات قصيرة مطبعة الغري، النجف عام 1973

المعجزة قصص قصيرة دار مجلة الثقافة دمشق عام 1989

المكتب رواية دار الحصاد دمشق 1989

المختار رواية دار الكنوز بيروت 1990

سيرة رجل في التحولات الأولى دمشق عام 1990

شيء ما في المستنقع مطبعة خالد بن الوليد دمشق عام 1991

الشمس تقتحم مدينة الثلوج دار الكنوز بيروت عام 1993

امرأة بستة أزواج دار الكنوز بيروت عام 1995

التجربة النفق الموتى يزحفون روايات من الخيال العلمي دار الكنوز بيروت عام 1995

آخر رحلة للسندباد دار الكنوز بيروت عام 1995

نهر جاسم دار الأضواء لبنان عام 2004

وأقبل الخريف مبكرا هذا العام رواية ط القاهرة

المقصف الملكي رواية بيروت.

الحبل والنار التي تسري رواية بيروت.

الثامنة والنصف بيروت (ترجمتها الى اللغة الانكليزية ونشرتها الدكتورة فوزية موسى غانم ، بغداد، ٢٠١٦)

روايات وقصص من الخيال العلمي ط القاهرة 2010

الدوريات العربية التي نشرت فيها:

جريدة الأهرام المصرية.

الموقف الأدبي مجلة اتحاد الكتاب العرب دمشق

العربي الكويتية

النشرات الأجنبية:

عشر قصص قصيرة نشرت في بعض الصحف الدنماركية

النشاطات الفكرية:

إلقاء عدة محاضرات عن الأدب العربي في جامعة دمشق.

إلقاء عدة محاضرات عن الأدب العربي في قسم الاستشراق بجامعة كوبنهاغن.

المساهمة في رفد معجم البابطين للشعراء العرب والمساهمة فيه.

المؤلفات التي صدرت عن أعمال الشاعر:

رسالة ماجستير عن شعر قصي عسكر كلية التربية جامعة البصرة خلدون الموسوي.

رسالة ماجستير عن روايات قصي الشيخ عسكر كلية التربية جامعة البصرة الآنسة إيناس جاسم محمد.

الرواية والمستقبل والنص الموازي، دراسة في روايتين لقصي الشيخ عسكر، د عبد الرحيم مراشدة، كلية الآداب، جامعة جدارا، الأردن، ط العارف بيروت، 2013.

بحث محكم عن شعر الشاعر قصي الشيخ عسكر قدمته الدكتورة هدى صحناوي الأستاذة في كلية الآداب جامعة دمشق لمجلة دراسات الخليج الصادرة عن جامعة البصرة.

مؤسسة المثقف العربي

مؤسسة المثقف العربي، مؤسسة غير حكومية، تعنى بالشأن المعرفي، وتمارس نشاطها في مجالات الثقافة والفكر والأدب والفنون. تتخذ من مدينة سيدني الأسترالية مكتبا رئيسا لها، ومن صحيفة المثقف موقعا على الشبكة العنكبوتية.

جاء الاعلان عن تأسيس مؤسسة المثقف العربي في 2010/01/05م استجابة لمتطلبات العمل الإعلامي الراهنة، وتلبية لضرورات نشر وتعزيز وإشاعة ثقافة التسامح والمحبة والتكافل، وايجاد مركزية مؤسساتية تضمن ترابط الأعمال الصادرة عنها، ووضعها في سياق العمل المنظم. فبعد عمل متواصل لثلاث سنوات في صحيفة المثقف انبثقت نشاطات أخرى، تطلبت وجود مؤسسة لإدارة شؤونها وتسيير أعمالها .

ومؤسسة المثقف العربي جهة مستقلة، ترفض العنف والتكفير، والتطرف المذهبي والسياسي، وتستقل برؤية بعيدا عن تشظيات الأيديولوجيا وكل الإنقسامات والخصوصيات التي تنال من كرامة الفرد والمجتمع. ساعية إلى ترسيخ قيم الإنسان عبر إشاعة ثقافة التسامح والمحبة والأخوة ووحدة المصير البشري .

ينبثق عن إدارة المؤسسة مجلس استشاري، يساهم في ترشيد سياسة المؤسسة، والتخطيط لمشاريعها المستقبلية، كما ستمثل نشاطات المؤسسة خارج استراليا نخبة من المثقفين، سعيا منهم لتعميق الأواصر الثقافية بين أبناء الكيان المجتمعي المتحد .

مبادئ مؤسسة المثقف العربي

- نؤمن بالتعددية والرأي الآخر .
- ندعو للتعايش بين الأديان والثقافات .
- نتبنى قيم: التسامح، والحرية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان .
- نحارب العنف والتحريض والتكفير .
- نرفض الخطاب الطائفي والأيديولوجي المحرض .
- نساهم في تعميق لغة الحوار والتفاهم وفق الثوابت الأساسية المستمدة من تعاليم السماء وقوانين الأرض .
- نعنى بالمثقف ومواقفه إزاء الأحداث والتحديات، ونعرّف بإنجازاته وأعماله ومشاريعه .

ماجد الغرباوي

رئيس مؤسسة المثقف العربي

إصدارات مؤسسة المثقف العربي:

- تجليات الحنين .. في تكريم الشاعر يحيى السماوي

- الضد النوعي للاستبداد

استفهامات حول جدوى المشروع السياسي الديني ... ماجد الغرباوي

- امرأة بين حضارتين ... حوار مفتوح مع ا. د. إنعام الهاشمي

- د.عبد الرضا عليّ .. رحلةٌ متوهّجةٌ في فضاءِ النقد والدرسِ الأكاديمي

- جذِلاً .. بينَ سِربِ السنونو .. سعد الحجّي

- وفاء عبد الرزاق .. أفق بين التكثيف والتجريب

- شوكت الربيعي .. فضاء إبداعي متوهج

- مدارات ايديولوجية .. حوار مفتوح مع الاستاذ سلام كاظم فرج

- الشيخ محمد حسين النائي .. منظّر الحركة الدستورية .. ماجد الغرباوي

- أيلول وضوء القمر .. د. هناء القاضي

- أدخلُ جسدي أدخلُكم .. وفاء عبد الرزاق

- غرّيد القصب ... سنية عبد عون رشو

- تعالى لأبحثَ فيك عنّي .. يحيى السماوي

- مدخل إلى الضوء .. وفاء عبد الرزاق

- المتخيل التعبيرى .. د. نادر أحمدعبد الخالق

- منهج الشهيد محمد باقر الصدر في تجديد الفكر الإسلامي .. د. عبد الجبار الرفاعي.

- ترنيمتان لمنفى واحد .. سوزان سامي جميل وأفين ابراهيم

- مطارحات حول الحجاب والزينة في الشرع الإسلامي .. غالب حسن الشابندر

- (مسرحية) رحلة ابن عوف إلى بلاد الخوف .. محمد تقي جمال الدين

- العُمْرَان البشري الإسلامي .. دراسة تأصيلية في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية .. د. رشيد كُهُوسْ

- في غياب الجواب .. وفاء عبد الرزاق

- أغلال أخرى .. وفاء عبد الرزاق

- وجوه أشباح وأخيلة .. وفاء عبد الرزاق

- إدمان السياسية .. سيرة: من القومية للماركسية للديمقراطية .. جورج كتن

- الزمن المستحيل .. وفاء عبد الرزاق

- حاموت .. وفاء عبد الرزاق

- سطر .. الشارع .. فلاح الشابندر

- توظيف النص القرآني في شعر أحمد مطر .. أ. د. محمد ثامر السعدون الحسيني

- البحث عن اللون .. حسن البصام

- العقل .. قراءات في إشكالية العقل عبر المدارس الفلسفية المتنوعة (1) .. غالب حسن الشابندر

- العقل .. قراءات في إشكالية العقل عبر المدارس الفلسفية المتنوعة (2) .. غالب حسن الشابندر

- أنقذتِني مني .. يحيى السماوي

- فنتازيا النّص في كتابات وفاء عبد الرزاق / د. وليد جاسم الزبيدي

- صمغ اسود / وفاء عبد الرزاق

- الطيور المهاجرة ورماد العودة / حوار مفتوح مع ا. د. عبد الاله الصائغ

- أنا ليلى حتى الرمقِ الأخيرِ / سوزان عون

- الاغتيال الاموي للبحر (مسرحية) / محمد تقى جمال الدين

- المرأة والقرآن .. حوار في اشكالات التشريع / د. ماجدة غضبان وماجد الغرباي

- تطوّر المباني الفكريّة للتشيّع / د. حسين المدرسي الطباطبائي

- الحركات الإسلامية .. قراءة نقدية في تجليات الوعي .. ماجد الغرباوي

- أشك حتى .. / وفاء عبد الرزاق

- رسالة ... / د. قصي شيخ عسكر

AAA - Sydney – Australia
Almothaqaf Arabic Association

مؤسسة المثقف العربي 2010

almothaqaf@almothaqaf.com www.almothaqaf.com